# العشْقُ المُقَدنَس

مكتبة طريق العلم

books4arab.com

عنوان الكتاب: العشق المقدنس
اسم المؤلف: عزالدين جلاوجي
الطبعة: الثانية
منشورات المنتهى، السداسي الأول 2016
ردمك: 978-9931-610-23-6

**كل الحقوق محفوظة**

دار المنتهى
**للطباعة والنشر والتوزيع- الجزائر**
**0663186822**

# العشق المقدس

رواية

عزالدين جلاوجي

# الإهداء

إليها...

أحلم أن نلتقي

على خمر معتق

وزهر مفتق

في سدرة منتهى

وبدر مشتهى

وسر منمق

## فاتحة

بتنا نمسد وجه الليل الكالح، نخضب لحيته الدامسة، نخوض لجحه الزنجية، نتراذذ عليه حبات من بياض القلوب، ننسج لنهاره رداء من خيوط الشوق،نزعج سبات العصافير، ندغدغ أخمص الشمس، نمسح عن خد البراعم وحشية الصقيع.

هي الأزمان تعبر أمواجا من سراب، تغشانا بالبلاهة، تسخر منا، تحصد من أحداقنا حزم الضوء، تزرعها بساتين للملح الأجاج.

من أي العيون سنعرج ولا عيون؟

في أي الأنهار نستحم وقد كفننا الجفاف؟

ونبيت نصرخ في الخواء اللعين:

-أيتها النجمات الكفيفات... اتقدي، كفاك كل هذا الخنوسْ.

-أيها البدر الأخرس... تبسم، كم يقتلنا هذا العبوسْ.

-أشرقي ياعروس السماء.

أعيدي إلينا دفء الأنبياء.

نَلِجُّ في السؤال.

نَلِجُّ في الدعاء.

مدي هِبَتي يدا نخضْ في الدروب الكئيبة، مديها نطوِ هَاتيك العقبات الكأداء.

نخوض من بين فرث للمأساة، ودم للظلام، نعدو معا، ننفلت من قبضة الليل، تسلمنا القبضة إلى قبضة، يسلمنا المخلب إلى مخلب، براثن في أذرع أخطبوط.

نمتطي شعاعا، يعبر بنا فجا كسَمّ الخياط، نسري، نعرج، نستوي على عرش الربوة، يتنزل عليها مجللا بالضياء.

-إنه القطب.

تمتمتُ.

-إنه القطب.

تمتمتْ هِبَة.

ثارت في أعماقي حرقة السؤال، هزتني الدهشة وهو يجيب:

-لابد أن تخوضا جبالا من لجج الظلام، بحثا عن الطائر العجيب، معه ستحققان الحلم.

واختفى فجأة كشهاب في عمق السماء.

وكفننا الظلام، وانغرزت نصال البرد الآسن في أعماق الأعماق، لا مناص الآن من أن نخوض خلف الحلم، لن نستسلم لعبث الظلام.

1

## الجاسوسان والخليفة

كانت حبيبتي هبة ترتجف هلعا وهي تطوق عضدي الأيمن، تكاد تلتحم بي، كان اضطرابها واضحا، وارتجافها يكاد يشنق الكلمات المتزحلقة من بين شفتيها، وما كنت أحسن حالا منها، إلا أن دهشتي كانت أكبر من خوفي، رحت أثبت بصري على المشهد حتى كادت أجفاني تفقد حركتها أيضا، لزمنا مكاننا محاطين بأفنان تعالت تحتضن جذع شجرة زيتون عملاقة، كان المكان فسيحا، تتعانق فيه عشرات من أشجار مختلفة، اعتلت جذوعها وأغصانها فوانيس غطيت بزجاج شفاف يغلب عليها اللونان الأحمر والأخضر، وامتدت حول الممرات أشجار أزهار متعانقة، يتوسط كل ذلك بركة صغيرة بها نافورة تمج الماء بهدوء، وخلف البركة بسطت زرابي ونمارق، يجلس الأمير في قلبها متكئا على جدار،مرتفعا قليلا عن المحيطين به، وخلفه راية كبيرة كتب عليها بالأبيض "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، وتحتها بالضبط "إن الحكم إلا لله"، وعن يمينه حارس يرتدي عدة الحرب كاملة، يوزع نظراته في كل اتجاه، ويشد بيمناه مقبض سيفه، كأنما هو في أقصى حالات الاستعداد لخوض أي معركة مفاجئة، وقريبا منه وقف خادمان مطرقان غير أن انتباها شديدا كان يبدو عليهما، لتلبية أية أوامر، وتوَزعَ في المجلس كهول وشيوخ بألبستهم البيضاء، ولحاهم التي عبث الشيب بأغلبها، ودون أن تكف أصابعهم عن العبث بحبات السبحة،

ظلوا يتبادلون حديثا يرتفع حينا حتى يصير جلبة.

وقد تناهت إلى أسماعهم نحنحة الأمير، الذي راح يجمع أطراف ثوبه، ويمسد لحيته الشقراء دون أن يرفع رأسه، فاعتدل جميع من كان في المجلس، ونحروا ألسنتهم، مد الأمير أصابعه إلى شاب متشايخ يجلس إلى جواره ليقمع حماسته إلى الحديث، وهو يقول:

-ألا تسمعنا يا أبا سلْمان التيهرتي؟

سكت أبو سلْمان فجأة كأنما ابتلع لسانه، أعاد الأمير نحنحته، يمهد الطريق لكلماته، حمد الله وأثنى عليه بما يليق بمقامه، وصلى على رسوله وصحابته جملة،وخص بالذكر أبا بكر وعمر، وقال:

-ولعل أحدكم يغمز في غيبتنا، ويقول ما بال هؤلاء حادوا عن سنة رسول الله وصاحبيه أبي بكر وعمر، فوالله العظيم ما يسرنا ذلك ولو ملكنا كنوز سليمان بن داود، وصناديق قارون التي تنوء بحملها العصبة من أولي القوة من الإنس والجن، ولقد منّ الله علينا فكحل أبصارنا بأنوارهم مذ خرجنا إلى هذه الدنيا الفانية، ثم قضينا ما مضى من أعمارنا بين تعلم لكتاب الله وسنة رسوله وجهاد في سبيله، ونسأل الله تعالى أن نلقاه مخلصين له الدين، على درب سادتنا وشهدائنا أبي الخطاب عبد الأعلى بن السميع المعافري، والحارث الحضرمي، والإمام أبي الزاجر إسماعيل بن زياد النفوسي، رضي الله عنهم جميعا.

ثم رفع رأسه يتفحص الوجوه كأنما يتهجى انفعالاتها، وتنحنح ثانية، ورفع عمامته، ثم أعادها حيث كانت، كأنما أحس بشدة الحرارة فأراد أن يهوّي شعره الأشقر الكثيف الذي امتد يغطي أذنيه ورقبته، واستدار فأشار بأصابع يمناه التي زينتها خواتم ثلاثة إلى حارسه دون أن ينظر إليه، وقال:

-مابال قوم يستكثرون علينا حارسا يحمينا في زمن اشتدت فيه

ظلمات الفتن، حتى ليكاد الواحد منا يخرج يده فلا يراها، ألم نقيض للأمة جميعا من يحرسها ويشيع الأمن والطمأنينة بين جنباتها؟ ألم ندفع من بيت المال كل ما يؤمنهم من خوف، كما دفعنا ما يطعمهم من جوع؟ ونحن فرد في هذه الأمة لنا ما لها وعلينا ما عليها، القوي فينا ضعيف حتى يؤخذ الحق منه، والضعيف قوي حتى يؤخذ الحق له، ووالله ما ضيع عمر -رضي الله عنه وأرضاه- إلا غفلته عن الحراس، وقد عاش بين ظهراني من هم أقرب إلى الله منا.

وسكت يقلب عينيه في الحاضرين كأنما ينتظر تعقيبا على مقاله، ولم يطل الأمر حتى أسرع أحدهم - وكان في سنه أو أكثر- يستأذن في الحديث بإشارة من يده، وقال، وهو يوزع نظراته بين الأمير والحاضرين:

-حاشا أيها الإمام أن تجرؤ الألسنة على تقوّل ما قلت، ونحن وسائر المؤمنين نشهد باستقامتك وعدلك، ونشهد لك بما قدمت في سبيل دين الله، خلفتك الأقدار يتيما في بيت الله الحرام كما خلفت رسول الله من قبل، ثم أخذت بيدك في رحلتك إلى القيروان، ثم في عودتك إلى المشرق للاستزادة من العلم، على يد الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، إمام الإباضية الأكبر رضي الله عنه، ثم في ما عانيته من اعتكاف في سرداب الإمام أبي عبيدة خمس سنوات كاملة تجنبا للظَلمة من بني أمية، ورحلة الجهاد التي خضتها تحت راية الإمام الشهيد أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليمني، رحمه الله ورضي عنه.

وردد الجميع الترحم والترضي بصوت أعلى حتى اهتز المكان، وحتى سُمعت أصوات نسوة تأتي من غرف الحريم، وما كادت تخفت، حتى رفع الأمام رأسه وقد غشيه حزن شديد وقال:

-عليه اللعنة ابن الشعث، سيف العباسيين لعنهم الله، وقطع

دابرهم جميعا، وفل سيوفهم التي امتدت لقتل الإمام، يعلم الله كم بذلنا من أرواحنا للدفاع عنه، غير أنه ما كان يهتم بنفسه ولا بحياته، كان كل همه أن ننجو إلى الجبال الحصينة، كي لا تموت دعوة الحق بموتنا، وهانحن إخوتي معكم وبكم، نقيم دولة الإسلام، دولة على الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم.

علق فتى كان يقوم في المجلس، يوزع شايا على الحاضرين:

-لقد عاقبهم الله على جبل سفوجج بالجدري، كما أرسل على جيش أبرهة طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل.

رفع فيه الإمام عبد الرحمن بن رستم رأسه، ثم واصل وهو يمد بصره بعيدا:

-وأود اللحظة أن أقدم إليكم وفد إخواننا من إباضية العراق.

وتلفت الجميع خلفهم حيث نظر الإمام، وعبر ممر واسع أقبل كهل أزعر اللحية، اندفع بحماس حتى جلس بجوار الإمام، بعد أن ألقى السلام، وتعلقت به العيون وقد زغردت عليها الفرحة، قال الإمام:

-هؤلاء إخوانكم في الله تعالى، تجشموا وعورة المسلك وخطورة الطريق، يحملون إليكم من حلال مالهم، ما انتزعوه من أفواه أبنائهم، لتقيموا به دولة الحق.

وارتفعت بين الجميع تمتمات إعجاب ودعاء، وارتفعت أكف الضراعة، ونشط بعضهم يقبل الضيف ويحضنه، وانتظر الإمام لحظات حتى يعود الأمر إلى ما كان عليه في المجلس، ثم قال وهو ينقل الطرف بين الحاضرين:

-ولقد قسمت هذه الأموال إلى ثلاثة: ثلث وزعته على فقراء الناس وضعفائهم، وثلث للخيل والسلاح، أما ما بقي فوجهته لاستصلاح الأراضي البور وغرس البساتين وشق الأنهار، فما قول...

ولم يكمل كلامه حتى اشتدت فجأة جلبة في الخارج، وتناهى إلى الأسماع وقع سنابك خيل تقترب، فأمسك الإمام عن الحديث، وتحول انتباه الجميع إلى البوابة حيث يقف جمع من الحراس، ودخل سريعا كبيرهم وقد شد بيمناه رمحه، وتدلى سيفه من خاصرته، وقال وقد وقف على حافة المجلس:

-أيها الإمام، لقد عاد قائد جيشكم المظفر.

ووقف كل من في المجلس حتى الإمام، مددت يدي إلى الأفنان الطرية أبعدها حتى يتسنى لي رؤية قائد الجند يدخل من بوابة القصر، دفعت هبة رأسها أمام ناظري حتى عبق أنفي بعطر شعرها الأشقر المتهدل، احتضنت كتفيها، وأحسست أن روعها قد زال، وأنها صارت أشد اهتماما بما نرى ونسمع، واشتد وقع حوافر الخيل وأقدام الرجال مع حمحمة خيول ترتفع حينا وتخفت حينا آخر، واندفع قائد الجند يدلف البوابة، وفي خطوات قليلة كان أمام المجلس يحيي الإمام بما يليق به، مقدما الولاء والطاعة.

وعاد الجميع حيث كانوا يقتعدون الزرابي والنمارق، وبقي القائد منتصب القامة، مرفوع الهامة، وقد بدا أشد سمرة، تلمع عيناه في الليل كأنهما قنديلان متوهجان، على محياه ملامح رضى وغبطة، وحين هم أن يقول، بادر إليه أبو سلمان التيهرتي:

- أقرأ كل الأخبار على محياك قائد جندنا المظفر.

ضم القائد رجليه إلى بعضهما، ومد يمناه على طول جنبه الأيمن، في حين ظلت اليسرى على مقبض السيف، وهي عادته نقشتها على طباعه كثرة ممارسته الحرب، قال بثقة يوجه كلامه إلى الخليفة الذي ظل يمد إليه بصره حينا، كأنما يستل كلاما، ثم يخفضه متمتما بعبارات الاستغفار.

- وصلنا إلى حدودهم أيها الإمام، وأرسلنا عيوننا فجاسوا خلال

الديار، لسنا نخاف بعد اليوم غدرهم، وقد صار لنا من الرجال ما لا يحصيه عد، يرون الموت في سبيل الله وإعلاء كلمته أغلى أمانيهم، آن يا مولاي لدولة الحق، دولة الله ورسوله أن تخفق راياتها، وأن تبسط نفوذها على الأرض كلها.

وتهللت الوجوه وهي تسمع هذه البشائر، وتعالت التكبيرات حتى من خارج السور، وارتفعت همحمات الخيول كأنما تتجاوب مع حماس الرجال، وأطرق الإمام متمتما بالدعاء والاستغفار، ثم وقف تاليا في وقار الآية: "اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ"، ومعه وقف كل من في المجلس، وقد علت وجوههم غبطة، وتعالت أصوات الحاضرين يهنئ بعضهم بعضا، أشار الإمام بيمينه إلى الجميع أن ينصرفوا، وقد كاد الفجر أن يتنفس، ثم استدار يدخل بيته، وتسابقت الأقدام تخرج من باب السور علها تحظى بلحظات من النوم قبل أن يؤذن للفجر، غير أن الأمنية ضاعت وصياح الحرس يرتفع من كل الجنبات.

-جواسيس،جواسيس.

وعاد الجميع إلى حيث كانوا، وهرع الحرس يشعلون المصابيح حتى توهج المكان كله، وأحسسنا بالجند يحاصروننا من كل جهة، وبنصلي رمحين ينغرزان في ظهرينا.

قال رئيس الحرس بصوت غليظ آمر كأنه الرعد.

-قوما أيها الجاسوسان.

رفعت هبة يديها استسلاما، فتوهجتا في الظلام، وقامت دون أن تمد ثنيتي ركبتيها تماما، والتفت قليلا وأنا أرفع ذراعيّ، وقد تملكني الرعب، وتضاعفت دقات قلبي حتى كاد يقفز في الفراغ، كانت ملامح رئيس الحرس مفزعة جدا، عيناه جاحظتان كحبتي ليمون، لونه كالح كأنما خلق

في جهنم، تجمعات شعرية نبتت متباعدة في وجهه، يكاد منخراه يغطيان خديه رغم بروزهما، في صوته بحة كأنما هي انحدار الصخور من قلة جبل، صرخ فينا ثانية بقوة:

-قوما.

ولا أعرف كيف حملتني رجلاي، وهبة إلى جواري تلتصق بي، وحين هممت أن أشدها، صاح فينا.

-ارفعا أيديكم.

ورفعناها ونحن نسير، وفي لحظات كنا أمام الخليفة، وحولنا رماح وسيوف وعشرات القناديل المضيئة، وفي عيون الجميع دهشة وهم يحملقون فينا، رفع رئيس الحرس صوته المبحوح خلفنا:

-إنهم جواسيس أيها الإمام.

وأردت أن أرد، لكن الكلمات تهاوت من بين شفتي إلى الأرض دون أن يفلح لساني في إنقاذها، وضغط رئيس الحرس على رقبتي بأصابع كأنها الفولاذ وقال للإمام:

- إنهما من جواسيس أعدائنا الملاعين.

وتقدم أبو سلمان التيهرتي حتى كاد يلتصق بنا، وفتح عينيه عن آخرهما محدقا في ملامح هبة، ثم ارتد ببصره إلى الخليفة، وقال:

-هذه هبة الله إليك، ولا أرى إلا أنها نزلت من جنة الخلد اتخذها جارية.

وأيقظتني كلماته، التي سرت في جسدي كله سريان الكهرباء، فصحت فيهم وأنا ألتصق بهبة.

-إنها حبيبتي، حبيبتي، وسنتزوج قريبا.

ابتسم الإمام وهو يربت كتفي مطمئنا، واضطربت في مكاني بين كلمات متناطحة، وارتفع آذان الفجر فجأة، فصمت الجميع، وقد غشيهم الوقار، وغرقوا في تمتمات يرددون من خلالها ما يقوله المؤذن،

وما كاد الآذان ينتهي حتى عاد الجميع يطوقوننا، غير أن الإمام دعاهم بإشارة من يديه إلى الخروج، قائلا:

-انصرفوا يرحمكم الله.

وماكادوا يلتفتون مغادرين، حتى استدار الإمام إلى دليله الخاص قائلا:

-استودعك الغريبين، إنهما أمانة الله في عنقك.

وانصرف داخلا، فانفض الحراس، وعم المكان هدوء، وهبت نسمات باردة منعشة، أحسست بارتخاء في عضلاتي، واعتدال في دقات قلبي، تنشقت أملأ كل صدري، وداعبت يدي أصابع هبة.

رفع الدليل مصباحه إلى الأعلى يتبين المسلك، وأمرنا أن نتبعه، قطعنا طريقا ضيقا بين أشجار متشابكة، ودخلنا بيتا منزويا، في ركنه الأيمن فراش من حلفاء، عليه زربية حمراء، ووسادة جلدية، وفي الزاوية المقابلة صندوقٌ مكبل بحبل ثخين، وزيرٌ كبير، فوقه نافذة صغيرة كانت مفتوحة قليلا، يقابلها كرسي خشبي طويل غير منسجم، خرج الدليل دون أن ينطق بكلمة واحدة، استوينا جالسين على الكرسي، أسرعت هبة تقول وهي تحدق في الفراش:

-هل يقتلوننا؟

أجبت مطمئنا:

-لا أعتقد.

ردت باضطراب.

-أحلم بالنوم، لكن أين نحن؟

-أنسيت القطب والطائر العجيب؟

وصمتنا مندهشين، رغم كل شيء كنت أشد يقظة، أما هبة فقد داعبت عيناها سنة من نوم، ومالت برأسها على كتفي، لكن الدليل لم يغب طويلا، عاد وهو يحتضن ألبسة، وضعها قريبا منا، وقال:

-لعل عصابة جردتكما من ملابسكما، وأنتما في الطريق إلى تيهرت.

وغاب عنا، يسمح لنا بارتداء ما وضع أمامنا، وفي لحظات، كنا كما أراد، عاد الدليل، جلس قبالتنا، واندفع يحدثنا بإعجاب شديد عن إمامهم عبد الرحمن بن رستم بن بهرام بن كسرى، في أخلاقه وتواضعه وتقواه، وفي مسيرته الطويلة المحفوفة بكل المخاطر من أجل إقامة دولة الحق، وما قدمه أنصاره الأمازيغ، وقد ضحوا بكل عظيم لديهم لإقامة دولة الفرقة الناجية.

سكت لحظات وليته ما فعل، لقد كانت نفسي تمور بعشرات الأسئلة الحائرة، لم يجبني عنها كل ما رأيته، ولا كل ما سمعته اللحظة من الدليل، الذي ظل يركز فينا عينيه حتى أثار ريبتنا ثم سأل:

-هل تدريان قصة بناء تيهرت هذه؟

وسكت ينتظر جوابا، ولم ننبس ببنت شفة، ظللنا نحدق فيه، مال برأسه ذات اليمين وذات الشمال، شبك أصابعه كأنما يستحضر أمرا عويصا، ثم اندفع يقول:

-عزم الرجال على توسعة تيهرت القديمة بادئ الأمر، وكانوا ينشطون نهارا في إقامة البيوت، فإذا جاؤوها من الغد وجدوها جذاذا، تأكدنا أن الجن قد سكنها، وأنهم كانوا يرفضون أن نجاورهم فيها، فقرر الإمام إقامة تيهرت الجديدة وسط الغابات العملاقة التي تكتظ بالوحوش والسباع والحيات، فلما خشي الناس أذيتهم، اعتلى الإمام صخرة عملاقة، وصاح في كل الوحوش يدعوها باسم الله أن تغادر المكان، وفي لحظات رأينا بأم أعيننا المئات منها تخرج في قوافل، باتجاه الغابات المجاورة، وتلك إحدى كرامات الإمام.

ولم يمسك الدليل عن الكلام،وسرد الأخبار العجيبة، والكرامات الغريبة، حتى دخل الإمام علينا، وعلى ملامحه ترحيب وابتسام، فأمر

لنا بطعام للإفطار، وأوصى الدليل بنا خيرا، وعاد ليخرج كما دخل مجللا بالوقار.

كانت الشمس قد بسطت أشعتها الدافئة على كل شيء، متسللة إلينا عبر النافذة والباب، وكان تغريد العصافير يقيم في حديقة مقر الإمامة حفلا بهيجا، ذكرني بالطائر العجيب، هل يمكن أن نكون في الطريق الصحيح للعثور عليه؟

2

## العيون والمناظرة

رغم الإحراج الذي سببته لنا ملابسنا الجديدة، إلا أن المكان كان قد ملأنا دهشة، ففاضت أنفسنا غبطة، وقفنا طويلا أمام دار الإمام، وهي تعتلي ربوة تشرف منها على المدينة كلها، كأنها الحارس الأمين، كل الشوارع والأزقة والساحات كانت في قبضة أعيننا،مجللة بالبياض مدثرة بالخضرة، تدغدغ رغبتنا في اكتشافها، كان الحراس قريبا منا يقفون كتماثيل حجرية، وحركة أقدام وأنعام تروح وتجيء، وبعض وفود من عامة وأعيان، يسعون وقد تشعبت بهم أغراضهم، وظل الدليل يقف صامتا شامخا،يقلب الطرف بعيدا، كأنما يغرينا بالصمت والتأمل، قلت لهبة وأنا أملأ كل صدري بنسمة عبقة رقصت حوالينا.

-حلم جميل.

واستفزت كلمتي الدليل، فقال وهو يمد ذراعه، وفي نبرته اعتزاز:

-هذه عاصمتنا العملاقة تيهرت.

وسكت، فلزمنا الصمت أيضا، كنت ساعتها أحلم بأن أكون طائرا أحلق مع أسراب الحمام لأكتشف المدينة من أعلى دفعة واحدة، فعلا لقد كانت مدينة عملاقة، تنبسط على مد البصر شمالا، حتى تقف في وجهك الغابات الكثيفة، ويرجع إليك البصر منهكا حسيرا حين تلاحق نهايتها غربا وجنوبا، تكاد خضرة الأشجار تخفي كل معالمها، غير بعض بيوت عالية بيضاء، أو بعض منارات مساجد ارتفعت هنا

وهناك، ويكاد الهواء البارد المنعش المترع بعبق الزهور يحضنك بحب، ويزرع في نفسك أفراحا لا تنتهي.

واندفعنا...

كان الطريق واسعا مبلطا بالحجارة الحمراء، على جانبيه أقيمت بيوت مختلفة، يظهر على كثير منها الثراء، تحتضن أسوارها الأمامية حدائق لأشجار مختلفة يغلب عليها السفرجل والزيتون، اتخذتها الطيور مأوى لها وملهى، كان الدليل لا يفتأ يشير إلى هذا البيت أو ذاك معرفا بصاحبه، مركزا على الاختلاف العرقي أو الديني، هذا لكوفي وذاك لمالكي وذلك لفارسي، وهنا بيت نصراني وآخر ليهودي وهلم جرا، وكنا نقف متأملين العناية الشديدة في بناء المداخل، واختلافها مما يعكس، أذواق أصحابها، ودرجة ثرائهم، وانتماءاتهم الطائفية والعرقية والعقدية.

تراخى سير الدليل فجأة، وصارت ضربات رجليه على الطريق باهتة، كأنما توجس أمرا ما، ورحنا نتخلف عنه قليلا، وقد لزم الصمت، ما كدنا نستدير إلى اليمين، حتى باغتنا شاب وقد اندفع إلينا من بوابة خشبية ذات مصراعين، كأنما كان ينتظر مجيئنا، منسدل الشعر كان، في أنفه نحافة، وفي عينيه بريق،وعلى ملامحه سمرة تفيض محبة وطيبة،لم يبدأنا بالسلام، بل راح يدفع المصراعين يدعونا إلى الدخول، ابتسم الدليل وهو يقول:

-ياعمار، تكاد تغرق الجميع في كرمك.

والتفت إلينا وواصل:

-إنه عمار العاشق، أكرم من عرفت، فاق حتى حاتم الطائي.

دفعتنا أنامل ابتسامته إلى أن ندخل، فتلقانا بستان بديع بشذى أزهاره وعبق ثماره، تكاد أغصانه تعانق الأرض وقد ناءت بحمولتها،

تسللنا من بين أفنانها وقد امتلأنا غبطة، واجهنا معرضٌ ضخم لألواح بديعة شكلها عمار العاشق على كل ما يمكن أن يرسم فوقه، حجارة ملساء، وألواح وجلود من كل الأشكال، وقصب يراع، فغرت هبة فاها وهي تقول:

-يا إلهي! ماهذا؟

وأسرع الدليل يجيب:

-عمار عاشق ولهان، مبدع فنان، يشكل بالخط لوحات بارعة، ويعزف على العود مقاطع ساحرة، ما أروع الجلوس إليه!

وقرأنا في لوحة كبيرة، تعلو ما سواها، بيتي جرير:

إن العيـــــون التي في طرفها حور
قتلنـــــنا ثم لم يحيـــين قتـــلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به
وهن أضعـــف خلق الله أركلـــنا

كان عمار العاشق قد أسرع فقطف لنا بعض الثمار، غسلها بماء عند بئر صغيرة هناك، وقدمها إلينا في صحن من فخار تزيَّن بخط بديع، وملأ لنا كأسين لم يخلوا من لمسته الفنية شايا، من إبريق تتعانق على خدوده أفنان نضرة، وجلس قبالتنا وقد حلا لنا المكان، فرحنا نرتشف، تدغدغنا اللوحات، وتدعونا إلى أعماقها، فنكاد نرقص طربا، وعمار ينقّل عينيه بين لوحاته والدهشة في عيوننا، فيزداد فرحا وانبساطا، وتطرب كل ملامحه وجوارحه، التفت إليه الدليل قائلا:

-لا طعم للشاي يا عمار إلا مع عزف العود.

وأسرع عمار ملبيا، كأنما كان ينتظر هذا الطلب، جلس على حافة البئر، يحتضن العود المطرز كأنما يحتضن ابنه المدلل، ودندنت الألحان، فجللنا الصمت الرهيب، وعرجت بنا الإيقاعات على أجنحتها

المشرعة إلى عالم حزين، نسيت كل ما حولي، وغصت بعيني في عينيه الدامعتين، ليس أروع من لحن يدر العواطف، ويطهر النفوس، وليس أبهى من دموع ساخنة تتدفق من منابع الطهر والنقاء.

كنت أتأمل عيني هبتي وقد تغشتهما الدهشة، وأعود بذاكرتي إلى أيامنا الخوالي، حيث كان الطهر يمنحنا أجنحته السحرية، نرفرف بها بعيدا بعيدا إلى قلبينا، نختلي فيهما طفلين بريئين، نختصر الكون كله في لعبة نصنعها، فتصنع أفراحنا، وتهدينا في الأخير باقة من سبات، يسرقنا متى وحيثما أراد.

أنهى عمار مقطوعته، فأغمض عينيه وانكب على العود يطوقه وقد أطبق عليه الصمت، كأنما يحاول أن يجمع كل الألحان الهاربة،المحلقة في الفضاء البعيد، جثوت بين يديه، واقتربت هبة تجس العود، كأنما ظنته مما نُفخت فيه الروح،وقطعت خلوتنا كلمات الدليل التي انطلقت تستعجلنا، وقف عمار العاشق في مكانه، تحتضن أصابعه اليمنى العود، كان يريد أن يمنحنا كل شيء، حتى عواطفه ومشاعره وأحاسيسه، لمحت في عينيه لوما وانكسارا ونحن نفارقه، أسرع يهدينا تحفتين بخط يده، جمعتهما هبة تحت جناحها، وخرجنا.

احتضننا الشارع الكبير من جديد، ورحنا نخوض فيه منحدرين، ومعنا خلق كاد المكان يغص بهم، في نهاية الشارع انفتحت أمامنا ساحة كبيرة جدا، تحيط بها مبان كثيرة، تبدأ أول ما تبدأ بمعصرة زيت عملاقة، يديرها فتى ممتد الطول،في وجهه حمرة، وفي عضلاته قوة وفتوة، كان منكبا على تصفيف قفف من الحلفاء، يظهر أنها أفرغت حديثا من حمولتها،يدس بعضها في بعض، ثم يكومها عند المدخل، حتى تكاد تبلغ السقف، حياه الدليل مصافحا بحرارة، أسرع يرحب بنا بوجه صبوح، وهو يمسح بكمه عرقا نشط على جبهته، قال الدليل:

-لا تنس حصتي من الزيت، وأريد زيتا للضيفين.

تبسم الفتى، يقلب نظره فينا وقال:

-لضيفيك هدية خاصة، فزيتنا لا مثيل له.

ونشط كهل يجلس أمام دكانه الملاصق يحيينا بحرارة، ويدعونا إلى بضاعته، كان الدكان لصيقا بالمعصرة، ورغم ضيقه فقد كان مكتظا بالتحف الثمينة، يصوغها من الفضة بكل الأشكال، ويصنع منها حليا وقلائد غاية في الإتقان، يضيف إليها حجارة ذات ألوان شتى، فتمنحها تميزا خاصا،كما تميز صاحبَها ملابسُه المختلفة عن كل ما رأينا، أعلمنا الدليل لاحقا أن الرجل من طوائف اليهود الذين يعيشون في المدينة.

في الجهة المقابلة، يقوم المسجد الجامع، حسب توصيف الدليل، يضم كل أتباع المذاهب، خاصة أيام الجمع والأعياد، ويقصده المسافرون، ويعتكف فيه طلبة العلم الشرعي، ويفصل فيه في أهم قضايا الناس، بينما تتوزع في المدينة عشرات المساجد الأخرى لمذاهب مختلفة، تتقارب أو تتباعد حد التناحر.

ووسط الساحة مئات التجار يعرضون سلعا شتى، زجاج وفخار وتحف وعطور ومنحوتات وخطوط وحلي وكتب، يتزاحم عليهم الزبائن ويلتفون حوله كأنهم أسراب نحل، وفي جانب الساحة الأيمن بناية ضخمة اعتلتها لافتة كتب عليها بخط بديع "مكتبة المعصومة"، انجذبنا إليها، وفي لحظات وقفنا عند بوابتها الخشبية المنقوشة، أدرك الدليل اهتمامنا بها، فراح يقدمها لنا، مركزا على الأشكال التي برع عمار العاشق في نقشها، لفتْنا اهتمام عميدها الذي كان يقف قريبا منا، فأسرع يأخذ بأيدينا داخلها حيث تركن مئات الآلاف من الكتب، تتوزع على غرف عملاقة، وتتجاور في رفوف خشبية، تعانق السقف، وإلى جانبها غرف للنساخ، وغرف للمطالعة، وحيث ينشط عشرات

العمال يقومون على شؤون الزبائن من طلبة العلم، يختلفون بين فتيان وشيوخ، ولكنهم يتفقون جميعا في حيويتهم وحماستهم.

سألتْ هبة، وقد تذكرتْ حكاية القطب والطائر العجيب.

-هل نجد ضالتنا هنا؟

صمتُ لحظات أتسمع لزقزقات العصافير حولنا، ثم أجبت مبتسما:

-في الواقع لا، أما في بطون الكتب، فسنقلّب كل ما نعثر عليه هنا.

وغاصت هبة بين أكوام الكتب، كفلاح يتفقد محاصيله، وإلى جانبها انغمست كليا أقلب صفحات كبيرة مصفرة، حتى تزكم أنوفنا روائح الأوراق والجلد، وفجأة تناهى إلى أسماعنا صياح وجلبة، دفعت الجميع إلى الخروج من حيث كنا، كانت الساحة قد غصت بالوافدين يقومون في حلقة كبيرة، بعيدا في أقصى العمق، ودفعنا الفضول إلى اختراقها، تسللنا من بين المكتظين، وسط الحلقة قام متناظران أحدهما شاب يتقد حماسة وحيوية، وآخر أقرب إلى الشيخوخة، ويظهر أن المناظرة قد أخذت وقتا طويلا، فاشتد حماس الجميع، وتعالت صيحاتهم، كأنما يرغبون في إنهائها، وقد راح النهار يزحف إلى منتهاه، طاف الشاب في المجلس قليلا كأنما يبحث عن الضربة القاضية، اقترب من الشيخ حتى كاد يلامسه، تنحنح فاهتز الجميع صياحا، وقال:

-يا عدو الله وعدو رسوله، أترى أن الله في السماء؟

رد الشيخ بثبات، دون أن يتحرك من مكانه:

-الله في السماء، هذه عقيدتنا، فكيف تنفيه ياعدو الله، وهو القائل: "الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى"، والقائل سبحانه: "أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ؟".

قال الشاب، وقد ارتفع صوته، يقلب نظره في الجمهور، كأنما يطلب دعمهم:

-وما تفعل بقوله تعالى: "وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ"، وقوله:"فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ"؟

وعلا الصياح والصراخ في الجميع، والشاب يرفع عقيرته يلعن الشيخ، ثم دفعه فطرحه أرضا، ثم استل سيفه مهددا كل الفرق الضالة، وسريعا تدخل الأنصار في الصراع، وتحولت المناظرة إلى معركة اختلط فيها الحابل بالنابل، وتدخلت الشرطة بعصيها الغليظة، فراح الجميع يلوذون بالفرار.

وجدت الفرصة سانحة، سحبت هبة من ذراعها وقفزنا حائطا يطوق الساحة،يضم المسجد الجامع والمكتبة وعشرات الدكاكين، وتنفتح فيه شوارع تمتد بعيدا في جسد المدينة، واندفعنا على غير هدى في أزقة تتسع وتضيق، ترتفع حينا نداءات الدليل يبحث عنا دون أن يعرف اسمينا، وتغرق أحيانا أخرى في أمواج الخصوم.

وحين حل المساء كنا قد قطعنا أميالا وسط الخلاء، وقد امتص منا التعب جل طاقتنا، رغم تخففنا من ملابسنا الفضفاضة، كانت هبة تجر قدميها بصعوبة، تردد بصوت خافت متقطع:

-الألم فضيع في قدمي، كأن بهما تشققات عميقة.

ولم أكن أرد سوى بنظرة تشجيع هي في حد ذاتها تعاني إرهاقا شديدا، وزادني ألم الجوع إرهاقا، تخطى حتى عتبة الحيرة الذابحة التي كانت تعتريني، ما الذي وقع لنا؟ وما الذي رمى بنا هاهنا؟

من بعيد في قلب ربوة تراءت لنا خيمة قرب شجرتين سامقتين، أسرعنا إليها، لم تكن بها إلا عجوز ذات همة ونشاط، تراذذت علينا كالغيمة مرحبة، فدلفنا الخيمة، وانبطحنا أرضا، وأسرعت العجوز تحضر لنا حليبا سائغا وماء، وبدأت تعود إلينا الحياة، لقد عمل الحليب عمله بسرعة عجيبة، وكان لظل المكان تأثيره الساحر، خرجت العجوز

وسمحت لنا باستعمال الخيمة كما نشاء، وهي فرصتنا كي نستحم، ونغير ملابسنا التي ظلت أسبوعين كاملين تركن في حقيبة الظهر.

حين عادت العجوز كنا على أهبة الانطلاق، ودعناها بحرارة، لم تكلمنا كثيرا، ولم تسألنا عن حقيقتنا أبدا، ولا عن وجهتنا،لكن عينيها لم تخلوا من حيرة.

واصلنا المسير ذاك المساء شاكرين، نحث السير للابتعاد ما استطعنا عن تيهرت، التي كانت تتراءى لنا ملفوفة بغابات الأشجار، عبقة بسحر الدهشة، كنت أخشى أن يتفطنوا إلى فرارنا، وكانت هبة تضحك وهي تعيد تمثيل مشهد أبي سلمان التيهرتي: "أيها الإمام، هذه هبة الله إليك، ولا أرى إلا أنها نزلت من جنة الخلد، اتخذها جارية".

وتسكت لحظات تختلط في عينيها دموع راقصة وضحكة حزينة، ثم تقلدني وهي ترتجف ملتصقة بي: "إنها حبيبتي، حبيبتي، وسنتزوج قريبا".

ونغرق في الضحك، تتشابك أصابعنا وأذرعنا، وأنتشي على إيقاع ضحكاتها العصفورية فأكاد أرقص طربا.

عند شفتي واد عرشت شجرة طلح كبيرة، تجود على الأرض بفيء عذب، عجلت الخطو، وجلست على بساط العشب الأخضر، غير أن هبة لم تكن مطمئنة تمام الاطمئنان، كانت تلح علي في أن نحث السير، فربما لحق بنا جند الإمام، ولم تكمل بسط فكرتها حتى تراءت لنا من بعيد سحابة من غبار تغطي السماء كلها، ومن غير عناء أدركنا أن كوكبة من الفرسان في إثرنا، اضطرب حالنا اضطرابا شديدا، وبدا أحلى الأمرين مر، يستحيل الفرار كما يستحيل الاختباء، واضطربت هبة يضيق بها المكان الرحب، تمد الخطو في كل اتجاه، ودار في خلدي ألف احتمال فلم استقر على واحد منها، وصاحت هبة وهي تجثو خلف ظهري.

-لقد وصلوا، لقد وصلوا.

تدحرجنا معا نختبئ بين صخرتين كبيرتين، يكاد الالتصاق بينهما يكون تاما، فلا تسمحان برؤية المشهد إلا للعين الواحدة، استأثرت هبة بالفتحة، وبقيت خلفها أمد رقبتي من فوق الصخرتين، أشهد الغبار وقد اشتد اقترابه، قلت وقد بدأ قلبي يدق:

-إنهم يقصدوننا حتما، هناك من دلهم على مكاننا، لعلها تلك العجوز الشمطاء.

وفجأة برزت كوكبة أخرى عن شمالهم، كأن الأرض انشقت ودفعت بهم، وكثر الغبار من كل مكان، وأصبحت سنابك الخيل تدق آذاننا بقوة، وصيحات الفرسان تملأ الفضاء، وتسلل الرعب إلى قلبينا، فالتصقنا معا، ونحن نستغيث الله، ودفعتني هبة فجأة، ومدت نظرها بين الصخرتين وصاحت.

-هلكنا.. والله هلكنا، لقد نسيت حقيبتي عند جذع الشجرة.

قلت دون أن أتحرك من مكاني.

-نحن هالكان لا محالة، لقد وصلوا.

وعدنا نحتمي برحم الصخرتين، ورغم أن الصياح والحمحمات ووقع سنابك الخيل قد ازدادت وضوحا إلا أن الفرسان لم يصلوا إلينا، لقد أخذوا أكثر من الوقت المقدر لذلك، وأحست هبة أيضا بالأمر فسألت.

-ألم يصلوا حبيبي؟

ورفعنا رأسينا معا، كان المشهد مختلفا تماما، لم نتوقع أن الثانية كانت تكمن للأولى، وأن معركة حامية الوطيس قد شبت بينهما، وفي غير مبالاة استوينا واقفين، نتابع الحدث كأننا نشاهد فيلما، راح فرسان يتساقطون، وآخرون يفرون، ولم تمض إلا ساعة من زمن، حتى انفض الجمع وانقشع الغبار، وساد الكون سكون بديع يغري بالنوم، وفعلا لم نستطع أن نبرح

المكان، لقد غرقنا في نوم طفولي، كأننا توأم في حضن رحم.

حين فتحت عيني في ساعة من الليل، كنت قد أترعت كؤوسي من نوم عميق، كان الظلام يحاصر الكون من كل الجهات، وكان ضوء القمر كحلم بهي يتغشى كل شيء، وكان الصمت يزرع في كل ما يحيط بنا دفئا من راحة ويقين، وتناهى إلى سمعي صوت طائر عذب، اعتدلت في جلستي، ثم قمت فاستويت على الصخرة، وظلت عيناي تجولان في الجو بحثا عن الطائر، أيقظت هبة دون أن أغير وضعية جلوسي، حين أدركت أنها استيقظت، قلت:

-هل تسمعين، أليس هذا صوت الطائر العجيب؟

دارت دون أن تفتح عينيها.

-عد إلى النوم، هذا صوت طائر الكروان.

وسكتتْ، فسكتُ أنكمش في مكاني أبحث عن دفء يرحل بي في عوالم النوم الجميل.

غير أن أحلام اليقظة قد حلقت بي على أجنحتها، إلى حيث التقينا القطب،رحت أستحضره حين فلجأنا كربوة طاهرة مثلجة، أكمامه الصمت وعبيره الذكر، ونَضِر قلبي وأنا أنظره، جثوت حيث أنا ومعي جثت هبة، كانت هالة النور حوله تتصل بالسماء، رنوت إلى كل الذي حولي أسعى إلى لملمة أطراف ما لا يجمع إلا في سويداء القلب، قلت همسا:

-نحن حبيبان، نبحث عن السعادة، هل تدلنا على الطريق إليها؟

رفع فيَّ عينين يتراقص الطهر فيهما وقال:

-اسألا الطائر العجيب.

وقبل أن أعاود السؤال اختفى، اندفعنا قائمين مجللين بالدهشة، كان كسحابة بريئة قد طار محلقا فوق جواده الأبيض، رأيناه يعلو.. يعلو ثم يتماهى قوزحا يوَشِّي السماء، ضمنا عناق دافئ ونحن

نلاحق الطيف في دهشة.

تسللت إلى الفؤاد طمأنينة عميقة، انكمشت كجنين استسلم إلى دفء الرحم، وقد ارتسمت على شفتي ابتسامة عميقة، وحيرة ذابحة، متى نجد الطائر العجيب.

3

## بئر الموت

أشرقت في القلب فرحة دافئة ونحن نصل مشارف عاصمتنا البهية الجزائر المحروسة، وأدركت أخيرا أننا نجونا من شر مستطير، وأننا صرنا إلى مأمن، وأسررت إلى حبيبتي هبة وأنا أرسم على وجهي ابتسامة عريضة، دون أن أحول عيني عن الطريق الذي لم يخل من حفر هنا وهناك.

–حبيبتي، لقد ابتسم الزمان لنا أخيرا.

وسكت أنتظر رد فعلها، غير أنها لم تتحرك، كانت شبه نائمة أو ربما نائمة، يميل رأسها عن شمال، تغطي ذؤابةُ شعرها الأشقر جبينها العريض، يتعانق ذراعاها على صدرها بحثا عن دفء للنوم، وتتعانق ساقاها الطويلتان في فستانها الأزرق، يترنحان حينا بعد حين، كلما غاصت السيارة في حفرة من حفر الطريق، أردفت بفرح كأنما أكلم نفسي.

–وأخيرا سنتزوج، سنقيم عرسا بهيجا يحضره كل أحبتنا هنا في العاصمة ومن خارجها، سيكون بيتنا عشا للمحبة والأمان، وسننجب أولادا، أنا أحب الأولاد، أعرف أنك عنيدة، وستفرضين رأيك فلا تتجاوزين ولدين، ولكن أحذرك سأتزوج عليك.

وضحكتُ وأنا أضربها على كتفها دون أن تنتبه كأنما هي جثة هامدة، وفجأة تراءى لي تحت ضوء السيارة حاجز للأمن، أسرعت بإيقاظ هبة وأنا أخفف السرعة، وما كادت تفتح عينيها جيدا، حتى توقفت السيارة عند أول رجل أمن، وهزتني الدهشة وأنا أراهم جميعا

يسرعون إلينا، بقمصانهم الخضراء التي تصل حتى الركبة، وسراويلهم القصيرة، ولحاهم الطويلة، فتحت عيني عن آخرهما، فركتهما جيدا، ما الذي أرى؟ وأين نحن؟ وأي طريق سلكنا؟ ما الذي يقع لنا؟ مذ رأينا القطب ونحن لا نخرج من متاهة إلا لنقع في أخرى.

صوب أحدهم فينا مصباحا شديد التوهج، حتى تعذر علينا فتح أعيننا، انتبهت من حيرتي، تأملت وجهه الأبيض النحيل، ولحيته السوداء الخفيفة، كأنها زرع في أرض مجدبة، اندفع نحونا قائدهم وهو يصيح:

-يا لها من فريسة ثمينة!

وأشار بيده إلى مساعديه فأنزلونا عنوة، حيث تم حجزنا في بيت صغير، به كراس وطاولة بائسة، وفراش يستعمل لاستراحة رجالهم، وعلى الجدار ثبت لوح عليه آية قرآنية بخط مغربي، إلى جوارها خزانة حديدية أسندت بقطع من الآجر الأحمر.

أسرع أحدهم يرمي غطاء على جسد هبة وهو يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، مرددا كاسيات عاريات.. كاسيات عاريات، لم تزد هبة على أن لملمت نفسها تحت الغطاء الذي كان مشبعا بالغبار، ورائحة الرطوبة، ومد آخر أصابعه يداعب وجهي الحليق وقال:

-كأنه وجه نساء.

سألت بغضب:

-وهل يقاس الرجال بلحاهم؟

وسريعا غيرت حديثي وقد رأيت شرر الغضب في عيونهم، وأردفت بسؤال آخر.

-لكن أين نحن؟

وقابلني قائدهم على كرسي آخر دون أن يدع رشاشه الذي ظل يوجهه إلي، يعلقه من حزامه على جنبه الأيسر، ويتأبط ماسورته،

ظللت متهيبا من رعونته، يمكن أن يتقيأ في أية لحظة كل ما في جوفه من رصاص، قال القائد يجيبني بهزء:

– أنت أيها المارق المبتدع، في دولة مولانا أبي علي محمد بن عبد السميع بن السبط بن علي البوني – حفظه الله وأدام ملكه–، أما أنا فذراعه اليمنى أبو البنين المتيجي.

وتملكنا العجب، وغشيتنا الدهشة، واتسعت عينا هبة حتى صارتا بحيرتين مضطربتين، وقام رئيسهم أبو البنين المتيجي من مكانه، في وقت بقي حارسان آخران يوجهان إلينا رشاشيهما، تنحنح وهو يحوقل ثم واصل.

–لقد قدمنا دماء غالية من أجل إقامة دولة الإسلام على هذه الأرض، دولة الله ورسوله، دولة على نهج القرآن الكريم والسنة المطهرة وهدي سلفنا الصالح.

وأردت أن أقاطعه لأخبره أننا كنا في دولة أخرى على كتاب الله وسنة رسوله وهدي سلفنا الصالح، ثم خشيت أن أدخل معه في جدال عقيم، فأحجمت، وكأنه أحس مني ذلك فتوقف يجيل فيّ بصره، ثم واصل وقد رآني ركنت إلى الصمت.

–ولن يهدأ لنا بال حتى نقيم هذا النهج على كل المسلمين، ندعوهم أولا، ثم نحملهم على ذلك ثانيا إن أبوا، فإن أقمنا ذلك فيهم، وقضينا على الفرق الضالة منهم على اختلاف مذاهبهم إذ لا مذهبية في دين الله، وجهنا سيوفنا إلى الكفرة، اليهود والنصارى، ليدخلوا في دين الله أفواجا، أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

مد أحد مساعديه نظره من نافذة البيت الصغيرة وقال:

–صلاة الفجر تقترب سيدي.

–حرر لهذين المارقين المبتدعين محضرا، وانقلهما إلى بيت الخلافة

لينظر مولانا في أمرهما.

قالها أبو البنين المتيجي وخرج، وبقينا زمنا ملفوفين بالحيرة نرد على أسئلة حمقى، عن موطننا ودِيننا ومعتقدنا ومذهبنا وفرقتنا والعلاقة التي تربطنا، ومن أين جئنا، وإلى أين سنذهب، وهلم جرا، ولم نكن نملك إلا أن نجيب مهما كان قرفنا وتذمرنا، إجابات لا هم لها إلا أن تنقذنا مما وقعنا فيه.

وأسرع المساعدان يشدان وثاقنا وقد جعلا ذراعينا خلف ظهرينا، عاد أبو البنين وهو في عجلة من أمره، يشمر على ذراعيه، تتقاطر لحيته ماء، وقد فاته أن يسألنا عما حيره، قال وقد وجدنا مقيدين:

-هل تعرفان شيئا عن المركبات الشبحية؟

واشتد عجبه، حين أبدينا جهلنا المطبق بهذا الأمر.

قال في سخرية كأنما يكلم نفسه.

-عجيب، ظهورها يحير الجميع، وهما يدعيان عدم العلم بها.

ثم اندفع خارجا يمسح لحيته، يزيل بقبضته ما علق بها من ماء، وهو يلوح بذراعه، كأنما يقول لنا: اذهبا إلى الجحيم.

وما كاد يخرج، حتى أسرع مساعدوه يدفعون بنا في جوف سيارة مصفحة قديمة، جلست هبة بجواري وقد تجللت بالرداء تماما، فلا أسمع إلا نحنحات قلق تصدرها من حين لآخر، وظل حارسنا الضخم يتمتم بآيات من القرآن يرتلها، يرفع بها صوته حينا، وما يكاد حتى يغوص في أعماق الخفوت، وكانت السيارة تسير على مهل، ولكنها تهتز بنا أحيانا كلما غاصت عجلاتها في حفرة بالطريق، فنعلوا حتى نكاد نلامس السقف، وكان عقلي رغم كل ذلك ينط مثل كنغر مرعوب، كل شيء كان يثير الحيرة فعلا، ماهذا القفز العجيب؟ وهل يستحق الطائر العجيب كل هذه المغامرات والمخاطر؟وما سر هذه المركبات الشبحية؟ هل هي الأطباق

الطائرة التي كنا نقرأ عنها في كتب الخيال العلمي؟

ولم يطل بنا الأمر حتى سُلمنا إلى حراس الأمير الذين فكوا وثاقنا واحتجزونا متباعدين في قاعة واسعة، تكاد تكون خالية من الأثاث إلا من بضع كراس أسندت إلى الجدار، ومن طاولة خشبية كبيرة توسطتها، تناثرت عليها كؤوس وفناجين تبدو مستعملة ومغبرة، ربما مضت عليها حيث هي أيام، وإلى جوارها تكومت كتب وأوراق، قلبتها سريعا، اكتشفت من بينها رزمة أوراق نقدية، تصفحتها ثم دسستها في جيبي، وعدت إلى مكاني صامتا تخرسني الدهشة، أقلب بصري في كل زاوية، أخشى أن نكون تحت المراقبة، وحاولت هبة أن تتغلب على خوفها، فتسألني عما يحيرها، لكن كلماتها كانت تضيع في لغط يصلنا من غرفة مجاورة.

تفقدنا أول الأمر أحد مساعدي الأمير، لم يكلمنا، واكتفى بتدقيق النظر فينا من خلف نظارته السميكة، ثم انسحب خارجا كأن الأمر لا يعنيه، ثم تفقدنا آخر بعد دقائق، لحق به ثان، ودفعانا بقسوة إلى مكتب الأمير، كانت قاعة المكتب واسعة الأرجاء، مكتظة بأثاث فاخر، طاولات وكراس وأرائك جلدية، وثريات تزين السقف والجدران، وأجهزة متطورة ركبت هنا وهناك.

جلسنا صامتين على كرسيين ملتصقين بالجدار بعيدا عن تجمع الأمير وحاشيته،لقد كانوا جميعا يغرقون في تحليل حقيقة المركبات الشبحية، قال الأمير كأنما يقاطع غيره :

-أما أنا فأسميها الجواري المضيئة، ألم تروا أن لا فرق بينها وبين النجوم، غير أنها أصغر حجما، تلمع فجأة ثم تنطفئ، لقد ذكرتني بقوله تعالى "فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ، الْجَوَارِ الْكُنَّسِ"، ولا أظن إلا أنها من مكائد الغرب اللعين في التجسس علينا، من أجل الاستيلاء على

ذهب العصر، بترول الشمس، وغاز الصخور.

قاطعه شاب يجلس عن شماله قائلا بحماس فياض:

- "وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ"، لن يطفئوا نور الله ونحن له وقود يا أمير المؤمنين.

وسكت الشاب فجأة، يرفع رأسه في كهل متشايخ يجلس إلى يمين الأمير، يتصنع وقارا، لا يكاد يتناسب مع ملامحه، كأنما ينتظر تعقيبه على قوله، والتفت إليه الأمير أيضا، وظل يحدق فيه، والشيخ يطرق لا يزيد عن التمتمة.

قال الأمير منبها:

-وما رأي شيخنا المفتي؟

رفع المفتي رأسه، وقال كأنما يقرأ من كتاب: روى النسائي، عن بُندار، عن غُندر، عن شُعبة، عن الحجاج بن عاصم، عن أبي الأسود، عن عمرو بن حُرَيث، قال ابن أبي حاتم وابن جرير من طريق الثوري، عن أبي إسحاق، عن رجل من مراد، عن عليّ "فلا أقسِم بِالخنسِ الجوارِ الكنس"، قال هِي النجوم تخنس بِالنهارِ وتظهر بِالليلِ، وقال اِبن جرِير، حدثنا اِبن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن سِماك بن حرب، سمِعت خالِد بن عرعرة، سمِعت عليًّا، وسئِل عن "لا أقسِم بِالخنسِ الجوارِ الكنس" فقال: هِي النجوم تخنس بِالنهارِ وتكنس بِالليلِ، وحدثَنا أبو كريب حدثنا وكِيع، عن إسرائِيل، عن سِماك، عن خالِد، عن علِيّ، قال: هِي النجوم، وهذا إسناد جيّد صحِيح، إلى خالِد بن عرعرة، وهو السهمِيّ الكوفِيّ، قال أَبو حاتِم الرازِيّ، روى عن علِيّ، وروى عنه سِماك والقاسِم بن عوف الشيبانِيّ ولم يذكر فِيهِ جرحًا ولا تعدِيلًا والله أعلم.

وتنحنح الأمير، وقد أحس بطول حديث المفتي، فسأل كأنما يغير

دفة الحديث:

-وما رأي الشيخ المفتي فيما صار يظهر في سمائنا؟

رد الشيخ وقد اعتدل في جلسته:

-لا أرى إلا أنها من فعل الجن، ولن يجعل الله للجن على المؤمنين سبيلا ولا سلطانا.

انتبه الأمير فجأة إلى وجودنا، فتغيرت ملامحه، وأشرق وجهه، كأنما كان قد نسينا، أشار إلى الحارس أن يقربنا إليه،ولفتت هبة نظر الشيخ المفتي، فجحظت عيناه، وهو يتفحص ملامح وجهها، وفر كل الوقار الذي كسا قسماته منذ لحظات وقال للأمير:

-إنها هدية الله إليك يا أمير المؤمنين، ضمها إلى صفوف جواريك، ستزيد بجمالها الفتان في سعادتك وتقويك على خدمة الإسلام والمسلمين.

وصرخت دون أن أنتبه لنفسي.

-مابالكم إنها زوجتي، حيث ما ذهبنا يريدونها جارية، أنتم لا تعرفون إلا الجواري؟

وقام كبير الوزراء من مكانه يريد محاججتي بغلظة، لكن الأمير أشار إليه أن يسكت ويلزم مكانه، كان الأمير أكثر ذكاء وأكثر دهاء، وهو يردد حتى يسمعه الجميع.

-حيث ما ذهبنا... حيث ما ذهبنا.

واندفع يسألنا فجأة وقد تغيرت نبرته.

-إذن كنتما في إمارة أخرى، أيها المارقان المبتدعان.

وأردت أن أنفي الأمر لكن هبة أسرعت تعترف.

-كنا في إمارة تيهرت.

مسد الخليفة لحيته الطويلة الحمراء من أثر الحناء، ورفع عمامته إلى الخلف عابثا بذيلها المسبل على صدره، وقال:

-كنتما في إمارة الخوارج عليهم لعنة الله ورسوله والناس أجمعين إلى يوم القيامة، إمارة الزنديق الضال المضل عبد الرحمن بن رستم، نطفة الطواغيت من الأكاسرة الجبابرة.

وراح يقلب أوراقا وكتبا أمامه، اختار منها واحدا وسأل دون أن يحول بصره عن أوراقه التي راح يتصفحها، وهو يبلل أصابعه من حين إلى آخر.

-قرأت في هذا الكتاب عن مدينتهم تيهرت هذا الوصف: "هي بلخ المغرب، قد أحدقت بها الأنهار، والتفت بها الأشجار، وغابت في البساتين، ونبعت حولها العين، وجل بها الإقليم، وانتعش فيه الغريب، واستطابها اللبيب، يفضلونها على دمشق وأخطأوا، وعلى قرطبة وما أظنهم أصابوا، هو بلد كبير، كثير الخير رحب، رقيق طيب، رشيق الأسواق، غزير الماء، جيد الأهل، قديم الوضع، محكم الرصف، عجيب الوصف.. ".

ثم رفع رأسه وقد أطبق الكتاب على إصبعه سائلا:

-فهل صدقا ما قرأت وسمعتما؟

وأسرعت أؤكد له ما قرأ علينا، وأضفت:

-بل وبها أيها الأمير إمام عادل، لا يظلم عنده أحد، القوي في رعيته ضعيف حتى يأخُذ الحق منه، والضعيف قوي حتى يرد الحق إليه.

وقام الأمير من مكانه يلوح بعصاه وقد بدا عليه غضب شديد قائلا:

-لقد كان ميلاد جدي -صلى الله عليه وسلم- كافيا لصدع قصور أجداده وتحطيم حصونهم، وعلى نهجه سأدك أسوارهم مهما علت، وأنقذ المسلمين من ضلالتهم، لأعيدهم إلى نهج النبوة والسلف الصالح، ولن أصدق أن عندهم كل هذه الخيرات، إلا أن يمدهم الله بها في غيهم يعمهون، ولن أثق من أن زنديقا مثل هذا يقيم العدل،

ويصلح بين الناس.

وأدركت أن الأمر سيكون خطيرا، وأن حربا شرسة ستشب عما قريب، وحتما سنكون نحن من وقودها، ولم أجد منفذا أتسلل منه لأرد عليه، كنت أزمعت طلب العفو منه، وإطلاق سراحنا، فنحن لا علاقة لنا بالطائفتين، ولا بما يعتقدان، ويتقاتلان من أجله، فلنا مشروع زواج ينتظرنا، ولكن فكري كان مضطربا جدا، وكل كلمة أقولها قد تفتح علي باب جهنم.

عاد الأمير إلى مكانه، تأملنا لحظات، ثم أمر كبير الوزراء، دون اهتمام بنا.

-يا كبير الوزراء ضعوهما في الحجز، أعطوهما لباسا شرعيا، وكتبا لمشايخنا لعلها ترشدهما إلى جادة الصواب، سنحتاج إليهما جاسوسين في حربنا على الخوارج الملاعين.

وإن هي إلا لحظات حتى وجدنا أنفسنا في محجز، لم نمش إلا دقائق حتى دخلنا سردابا من بين أشجار ملتفة، سرنا في رواق طويل، تتغشاه الظلمة أحيانا، وتغازله أشعة شمس متسللة من بين أغصان متعانقة، في دهليزه سلمنا الخادم إلى حارس به بسطة في الجسم كانت أبرز في الرأس واليدين، وعلى ملامحه خمول حتى خيل إلي أنه مدمن، أدخلنا غرفتين منفصلتين، دون أن ينبس ببنت شفة، وأغلق البابين الحديدين، وجلس بيننا كأنما يعد أنفاسنا، هو ليس أبله فحسب، بل لعله أبكم أيضا.

نقلت بصري في الغرفة الضيقة، دغدغت أنفي رائحة الرطوبة التي قضت على لون الجدران فصارت سوداء قاتمة، ملحقة بالضوء المتسلل من نافذة ضيقة هزيمة نكراء، غطى معظم الأرضية فراش من حلفاء، حاصرته العفونة من كل أطرافه، قرب الوسادة خزانة خشبية صغيرة تتلوى تحت ثقل عشرات الكتب، في الزاوية اليسرى حوض

صغير تعلوه حنفية، لعله يتخذ أيضا لقضاء الحاجة، ومن زنزانة هبة ارتفع صخب شديد، تحول سريعا إلى ضرب قوي على الباب الحديدي الصدئ، لعلها فكت ألواح المكتبة، مددت بصري عبر الشباك، كانت هائجة كموج شتوي أثارت غضبه عاصفة هوجاء، صرخت فيها.

-هبة.. هبة.. هبة حبيبتي.. اهدئي.

انفجرت بكاء وانهارت على الأرض.

-اللعنة... اللعنة، ما هذه اللعبة القذرة؟

وقام الحارس متثاقلا، فبدا لي كأنه الغول، كما رسمته مخيلتي وأنا صغير، وانتظرت أن يصم آذاننا بالصراخ، لكنه لم يفعل، كان هادئا إلى حد كبير، سكنت هبة داخل زنزانتها كأنما تملكتها الدهشة، وتصورتها تفتح عينيها فزعا، وهي تبصر الحارس يطل عليها، أو ربما غرست رأسها بين يديها وركبتيها وانزوت في الركن، ومددت يدي من خلال القضبان أريد أن أوقف اندفاع الحارس وهو يقبض على شباك هبة بقوة، وانتظرت أن يجذب الباب فيوقعه أرضا، لكنه لم يفعل، بل قال بصوت هادئ:

-معظم من دخل إلى هذا المكان لم يخرج إلا جثة هامدة، خلف زنزانة رفيقك بئر عميقة، ترمى فيها الجثث بعد أن تبلل بالبنزين وتحرق.

هدأت هبة تماما فلم يعد يصلني بكاؤها، سبقتني عيناي إلى نافذة الزنزانة، فعلا لمحت هناك بئرا وحواليها بقع سوداء تدل على حرائق أشعلت هنا وهناك، دق قلبي، أحسست به يلكم حنجرتي، جلست أسند ظهري إلى الجدار، مددت رجلي غير مبال ببرودة الإسمنت، هل يمكن أن يكون هذا مصيرنا أيضا؟

تناهى إلى سمعي شخير الحارس، أسرعت إلى الباب، ناديت كالهامس.

-هبة.. هبة.

قبل أن أكمل الكلمة الأولى وجدتها تمد شفتيها بين الشباك كأنما تهم بدعوتي أيضا، سبقتني قائلة.

- إنها نهايتنا، هل رأيت البئر؟

ورأيتها تبتلع ريقها بصعوبة، قلت هامسا:

-ليس لنا وقت نضيعه، لابد أن توقظيه بصياحك، اختلقي أي سبب للعويل والتضرع كي يخرجك، لابد أن تسرقي منه المفتاح.

ودون أن ترد ارتفع صراخها كأنما أفزعها عفريت في الزنزانة، وهب الحارس واقفا وأضاء المصباح، ليطرد ظلمة بدأت تكفن المكان، وازداد صراخ هبة تخبط بيديها على الباب صائحة.

-أفعى.. أفعى.. أفعى...

ومد الحارس الذي أفزعه صراخها بصره من خلال الشباك دون جدوى، ودون أن تسكن هبة، أسرع بيد مرتجفة يخرج حزمة المفاتيح من جيبه مغمغما بخوف، ودلف باحثا تحت الفراش، واستغلت هبة الفرصة، فتسللت خارجة وأغلقت الباب.

4

## في ساحة الرجم

لم أكن استطيع المشي إلا متعثرا في الجلباب، الذي خرجت متنكرا به، أشد يد هبة، أضغط أصابعها خشية أن تنفلت مني، لا شيء يظهر حتى عيوننا التي كانت تتلصص من وراء شباك من الخيوط الرفيعة، وما كدنا نوغل في شوارع المدينة حتى صرنا أشبه بعشرات النسوة، اللواتي كن يظهرن من حين لآخر، في اتجاهات مختلفة، يدرجن كأغربة حائرة، تراءت لنا محطة حافلات، حثثنا السير إليها، لابد أن نصل البيت بسرعة، خشية أن يتنبه إلينا حراس الخليفة فيقتفوا أثرنا.

حين ركبنا فوجئنا بها تنقسم قسمين قسم للرجال وآخر للنساء، جلسنا متجاورين نلزم الصمت المطبق، أكبتُ حتى الكحة مهما بلغ إلحاحها وعنادها، واستدارت إحداهن تسألني بصوت خافت، إن كنت حضرت صلاة الجمعة البارحة عند الشيخ أبي عبد القهار بن يزيد المهاجر، واضطربت مكاني لا أعرف كيف أجيب، وأسرعت هبة لإنقاذي قائلة:

-إنها بكماء.

واهتمت المرأة بشأني، فسألت هبه وهي تستدير إلينا تماما.

-هل تعرفين أبا علي إسحاق بن إبراهيم السلفي، إنه أكبر راق في العالم، لمسة من يده، نفثة من فمه، تكفي لبرء هذه المخلوقة.

لم تجبها هبة إلا بحركة من رأسها، فركزت في نظرها بشفقة، ثم حطت يدها على يدي، وراحت تتمتم بكلمات ما وصلني منها شيء،

همزتني هبة تدعوني أن أسحب يدي، لكن الحافلة ركنت إلى محطتها الأولى، وارتفع صوت المسير يطلب أن نجمع نقوده، واستغلت هبة الفرصة فاندفعت نازلة، وأسرعت خلفها.

لم يكن همنا إلا أن نصل بيتنا، قطعنا الشارع الطويل، ثم انعطفنا في زقاق، وسريعا دخلنا البيت من الباب الخلفي، واندفعنا إلى الطابق الأعلى المطل على الشارع العريض، كان الضوء باهتا وهو يتسلل من بين الستائر وأضلع النوافذ، أضاءت هبة المصابيح، تخلصنا من جلابيبنا السوداء، وانبطحنا بعشوائية على السرير الكبير، كنا في حاجة إلى نوم يذهب عنا ما لحقنا من خوف وتعب.

واضطررت قبيل المغرب أن أتسلل إلى الشارع المقابل، قصدت مباشرة بقالة كبيرة ترقص داخلها أضواء مختلفة الألوان، انتقيت بعض ما يلزمنا، وعدت عجلا حتى لا أثير انتباه الناس إلي.

قضينا اليوم الثاني في البيت، تعاونا على تنظيفه، وإعادة ترتيب أثاثه، وإصلاح التلفاز الذي فقد صوته، وسهرنا نستعيد الأحداث، منذ وجودنا معا خلف شجرة الزيتون بحديقة دار الإمام، إلى وجودنا بقصر أمير المؤمنين، وكانت هبة كل مرة تعيد مشهد اكتشافها جاريةً في حضرة الإمام عبد الرحمن، فتضحك بدموع حزينة، وكنت أتخيلها وقد أعيد بيعها في أسواق الجواري لتتقلب في أرض الله الواسعة.

بعد يومين قررنا أن نخرج إلى المدينة، نشطنا نتنكر في الجلبابين، كل شيء كان أسود حتى الجوربين والقفازين، ودرجنا نغادر البيت، ولجنا الشوارع المكتظة حركة وضجيجا، كنا نحس بعيون الشرطة تبحث عنا في كل مكان، وكانت أحاديث الناس تتناقل قصتنا بغرابة، خاصة وقد وضع الخليفة جائزة مغرية لمن يعثر على الجاسوسين الفارين، انضممنا إلى مجموعة من النساء عند سوق شعبي كتبت عليه لافتة كبيرة "محرم

على الرجال"، لم يكن لهن من هَمّ إلا الحديث عن الجاسوسين، تأتي كل منهن بحكاية مختلفة، تنقلها غالبا عن زوجها أو عن أحد أقاربها، الذي له علاقة ما بالخليفة وقصره، وتمطط في الحكاية ما أسعفها خيالها، زعمت إحداهن أننا عملاء لليهود والنصارى الذين يسعون إلى سرقة ثروتهم من بترول الشمس وغاز الصخور، وادعت ثانية أن الفتاة جنية أرسلت لاختبار تقوى أمير المؤمنين، الذي أحرقها وهو يغض بصره مرتلا عليها آيات من ذكر الله الحكيم، وروت عن أخيها الذي يعمل حارسا في القصر، أنه قد شاهد الجنية تتعرى تماما أمام الأمير، وتكشف عن فتنتها التي لا تقاوم، غير أن أخرى زعمت وهي تقسم بأغلظ الأيمان، أن الفتاة هي من أميرات الجن فرت مع أخيها من مملكتها وجاءت لتهب نفسها لأمير المؤمنين، وأنه احتجزها لينظر في أمرها مجلس علماء الأمة ثم يصدروا فيها فتوى شرعية.

عرجنا في طريق عودتنا على مكتبة، تتراكم أمامها صحف ومجلات، ويقف قريبا منها شاب يوزع مجانا كتيبات ومنشورات متنوعة، كان حظي منها كتيب بعنوان "الكفر والجنون في كتابات الزنديق أركون"، أسرعت أدسه في محفظتي، تنقلت عيوننا حائرة بين الرفوف، كان همنا العثور على كتب في الفلسفة والفكر والأدب، توقفت هبة تقلب بين يديها كتابا، ثم قرأت عنوانه، "السيف البتار في فتاوى ركوب البحار"، سألتني تستفز بائعة لم تتجاوز عامها العاشر وقفت قريبا منا:

-وأخيرا عثرت على رواية.

اقتربت منا البائعة بلطف، وقالت كالهامسة:

-الرواية حرام في إمارتنا، إنها لغو وافد.

منذ ذلك اليوم لم نعد نسعى إلى البحث عن كتب جديدة،مكتفين بما نملك، راحت هبة وقد اشتد ضجرها تستعجلني في العودة إلى

البيت، في حين كنت أصر أن نتوغل في تضاريس المدينة، برغم المأساة الذابحة كان يستهويني أن أكتشف الجديد الطريف، سمحنا لأرجلنا بالانطلاق حيثما تشاء، دخلنا قلب العاصمة، وقفنا عند العين الفوارة البديعة التي أقيمت مكان تمثال الأمير عبد القادر، كل البنايات كانت تزدهي بلونها الناصع، وكان المكان عبقا بروائح زكية، وعلى امتداد شارع العربي بن مهيدي، والذي صار شارع المجاهد الشهيد أسامة بن لادن، كانت تباع زجاجات عطر ومسك وأعواد طيب، وألبسة بيضاء، ومصاحف مختلفة الأحجام، وكتب أدعية، وأشرطة وأقراص.

في الركن الأيمن قامت صيدلية عملاقة، كتب على لافتتها بخط جذاب كبير: الطب البديل، ثم بخط أصغر إشهار لأهم ما فيها، لم يلفت انتباهي إلا جملة: عندنا أبوال البعران، وفي الركن الأيسر تقابل العين الفوارة مكتبة شيخ الإسلام ابن تيمية، عند بابها شخصان أحدهما كهل يقف مداعبا بأصابعه لحيته الحمراء، والثاني شاب يقتعد كرسيا يترنح رأسه أحيانا، يظهر أن نعاسا يراوده، اقترب منا فتى يعرض جرائده وهو يرفع صوته المبحوح بأسمائها، وخلفه آخر يحتضن صندوقا خشبيا لطيفا يبيع حلويات، يظهر من ملامحهما أنهما شقيقان، كما يوحي منظرهما أنهما يكافحان فقرا مدقعا.

وارتفعت الأصوات في الساحة فجأة تنادي:

–حدود.. حدود، حدود.. حدود.

واندفعت الجموع بين راكض ومهرول، وجرفنا التيار باتجاه البريد المركزي، وبالضبط إلى الساحة الكبيرة التي تنبسط أمامه، وقد أعد وسطها ميدان حمل في لافتة كبيرة اسم "ميدان الحدود"، تتقدمها منصة رخامية كبيرة مغطاة بسقيفة خضراء، وإلى جوارها بيت صغير، يظهر أنه يضم أدوات تنفيذ الحدود، وتوسط الساحة زير كبير ملئ حجارة حجمها مما يملأ

قبضة اليد، وفجأة تعالى الصياح من بعيد، وقد جاؤوا يجرون امرأة تعوي باكية، ثبتوها في فتحة داخل الأرض، وشدو خصرها بالحبال خشية أن تفر، وقام أحدهم خطيبا، لم أذكر من خطبته الطويلة إلا قوله: "لقد تابت توبة لو وزعت على سكان إمارتنا لأدخلتهم الجنة".

وشُرع سريعا في الرجم، كان المكلفون يغرفون الحجارة من الزير، ويرمون بها المرأة بمهارة فائقة مركزين على رأسها وصدرها، وهي تتألم وتصيح مسترحمة، ووقف الناس ممن قدر على متابعة المشهد، بين متحمس ومتألم، تعتصر ملامحه أسى عميقا، وتذمرا شديدا، وأمسكت بيد هبة التي التصقت بي دون أن تتفوه بكلمة، بينما سكتت المرجومة، وترنح رأسها قليلا، ثم سكن متدليا على كتفها الأيمن، وقد امتلأ وجهها دما.

وهزتنا زخات عشوائية من رصاص انطلقت في كل الاتجاهات، سقط بعض الراجمين بين قتيل وجريح، وانفض الجميع عدوا يطلبون السلامة، احتمى بعضهم بالأماكن القريبة، وتمدد آخرون حيث هم متظاهرين بالموت، تعثرت في جلبابي وسقطت وأنا أهم بالفرار، وانبطحت هبة إلى جواري، لم نكن ندري ما الذي يقع بالضبط، ولم يكن يصلنا إلا صياح النسوة والرجال والأطفال وقد شرد بهم الخوف في كل اتجاه، بقينا ممددين، لا نتحرك قيد شعرة، وحبسنا حتى أنفاسنا، كنت أنتظر اقتحام المهاجمين الساحة ليجهزوا على كل حي، وتمتمت ليتني أخذت برأي هبة وعدنا إلى البيت.

توقف الرصاص، وساد الهدوء لحظات، ثم بدأت الحركة تُنشر من جديد، وراحت الأصوات والأقدام تتزاحم وقد امتلأت الساحة جثثا ودماء، وعويلا وأنينا، واشتد صخب الناس وهرجهم وهم يسحبون الجثث والمصابين، لم تكن المرأة المرجومة في مكانها، كأن طيرا تخطّفتها،

ولاكت الألسنة تأويلات مختلفة، غير أن الشرطة وصلت سريعا، تطلق زخات تحذيرية، داعية الجميع إلى مغادرة الساحة حالا.

كان العياء باديا جدا علينا ونحن نلج البيت، ما الذي يقع في هذا العالم، أين نحن؟ ومع من؟ عرت هبة رأسها دون أن تتخلص من جلبابها وتمددت على السرير، في حين أسرعت أنا أتخفف من ملابسي، كنت أحس بارتفاع حرارتي، وبحبات عرق تقرص أماكن من جسدي، كان الفصل شتاء، غير أن حرارة الجو بدت مرتفعة أكثر من اللازم، وبمجرد أن فتحت هبة الراديو وصلتنا خطبة مفتي الإمارة، يدعو فيها الجميع إلى التوبة من المعاصي ورد حقوق الناس، وبث روح التسامح فيما بينهم، والاستعداد لصلاة الاستسقاء يوم الأربعاء القادم.

قطعت أنفاسه بغصب، حملت منشفتي واندفعت أدخل لأستحم، سألت هبة وأنا عند بابه مسترجعا حادثة اليوم.

-كان حكم اليوم برجم المرأة قاسيا، ما تصورت أن يبتهج بشر برجم بشر حتى الموت.

لم ترد هبة، استدارت على جنبها وغرقت في الصمت، وقد بدا شعرها أطول مما تعودت عليه، حتما لن تجد هنا حلاقة تهتم بها، قلت وأنا أدخل الحمام لأفتح الماء الساخن، كأنما أجيب نفسي عن السؤال الذي طرحته.

-ولكنه حكم الله.

أجابت هبة دون أن تغير من وضعيتها.

-ليس في القرآن ما يدل على حكم الرجم.

وسكتت فسكتُ، كانت الساعة منتصف النهار، وكانت نشرة الأخبار تنقل حادثة اليوم بالتفصيل، لم يكن الرصاص الذي أطلق مباشرة بعد البدء في عملية الرجم إلا هجوما نظمه مارقون لإنقاذ أم

زعيمهم، وأكد المتحدث باسم شرطة الإمارة أن رجالهم يلاحقون عصابة المارقين في الغابات المجاورة للعاصمة، بعدها قرأ المذيع فتوى بتكفير رأس الفتنة المارق أبي عبد الله علي البكّاء، الذي ظل لسنوات طويلة يخوض حرب عصابات ضد دولة أمير المؤمنين.

استرخيت تماما، راح الماء الدافئ يتسلل إلى أعماقي عبر مسامات جلدي المنفتحة عن آخرها، كنت أريده أن يطهرني كلية، أغمضت عيني، وراح خيالي يستعرض شريط حادثة اليوم، باحثا دون جدوى عن الآية القرآنية المحددة لعقوبة الرجم، إذا بدق عنيف يتناهى إلى سمعي على الباب الخلفي لمنزلنا، وأسرعت هبة واقفة، تهمس إلي.

-دق مريب، أسمعته؟

عجلت أرتدي ثيابي، وخرجت أجفف شعري، نزلت بضع درجات، كانت الدقات قد اشتدت، ثم انهار الباب، واقتحم البيت رجال شرطة يشهرون أسلحتهم، ويحتلون كل مكان في الطابق الأرضي، ثم سريعا ارتقوا الدرجات، تراجعت أمامهم إلى منتصف البيت، وأمام دهشتنا تم تفتيش كل زاوية تفتيشا دقيقا، بينما قام آخرون بتقييدنا، وظل قائد المجموعة يردد:

-جاسوسان مارقان من طاعة أمير المؤمنين، سيكون عذابكما الرجم حتى الموت.

لم نرد، كان الخوف يكبل كل جوارحنا، أكملت هبة ارتداء جلبابها ووقفت إلى جواري، بعد ساعة، كنا مقيدين عند أمير المؤمنين، وصادف ذلك حضوره مع مجلس وزرائه حلقة التفقه التي اعتاد مفتي الإمارة عقدها تحت عنوان "واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون" ويأتي فيها بجديد فتاويه مسايرة لمستجدات العصر، وتذاع عبر كل وسائط التواصل، ثم تطبع في كتيبات وتوزع مجانا، ثم يتناولها الأئمة في

المساجد لتيسير فهمها، وكان أحدث ما أفتى فيه الشيخ العلامة، ما يجب على أهل السنة تجاه الشيعة، وأنهى كلامه بقوله: "قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة: "إن أصل كل فتنة وبلية هم الشيعة، ومن انضوى إليهم، وكثير من السيوف التي في الإسلام، إنما كان من جهتهم، وبهم تسترت الزّنادقة"، وقال الشيخ عبد الله الجبرين: "فالرافضة بلا شك كفار...".

وماكاد الشيخ ينهي كلمته حتى تعالت الأصوات بمحاربة الشيعة الضالين، قال أمير المؤمنين مطمئنا المتحمسين:

-نحن بصدد عقد ملتقى كبير بعنوان "ملتقى أسود السنة الأخيار، في محاربة العلمانيين والمعتزلة والرافضة الأشرار"، سيحضره كل علماء السنة من أصقاع العالم: مصر والشام واليمن والحجاز، وحتى أفغانستان، وسيبت الأمر معهم في حينه.

سألتني هبة وقد بدت مكومة في جلبابها الأسود ككيس لا تعرف أسفله من أعلاه.

-ألا يعرف هؤلاء شيئا آخر غير الحرب؟

أردت أن أصرفها عن هذا الهم فطرحت سؤالا آخر.

-ألم يعجبك قول شيخ الإسلام؟

-فعلا أعجبني، إنها فتوى صنعت في قصور ملوك بني العباس، كما صنعت فتاوى قبلها في قصور بني أمية.

علقت مبتسما.

- إذن، شيعية أنت؟

ردت وقد بدا في صوتها غضب شديد، رغم أن صوتها ظل منخفضا كأنما يأتي من الأعماق.

-كل هذا الهم عندي طواه الزمان.

وأحسست كأن هناك من يتلصص علينا، فأشرت متنحنحا، ولزمنا الصمت، وفعلا اندفع أحد الحراس يلج الغرفة الجانبية المظلمة التي وضعنا فيها، ووجدنا أنفسنا نجر عنوة أمام أمير المؤمنين، الذي ما إن رآنا حتى انبسطت أساريره، وأمر الحراس بفك قيودنا الحديدية، وجلس إلى عرشه دون أن يسمح لنا بالجلوس، قال، وهو يسوي عمامته على رأسه.

-لا بد لأهل السنة والجماعة أن يسودوا، وأنتم إن شاء الله من أنصار الفرقة الناجية، نجانا الله وإياكم من الفرق الضالة.

وصمت كأنما ينتظر جوابا، ولم يسمع منا شيئا، حتى التأمين على دعائه، تجرع رشفة من كأس عصير ظل أمامه من الجلسة السابقة، وقال معاتبا.

-الجميع قضى بشنقكما، جراء ما فعلتما، إن الهروب من أمير المؤمنين هروب من الله، لكني عفوت عنكما.

وسكت ينتظر ردنا، ولم نفعل شيئا سوى أن لزمنا الصمت أيضا، واصل:

-أريدكما رسوليَّ إلى دولة الخوارج، جاسوسين عليها، لن يهدأ لي بال حتى أبيدهم عن بكرة أبيهم، وأنقذ المسلمين من شرورهم وضلالهم.

وأخرج من درج مكتبه رسالة ملفوفة، فك رباطها وقرأ:

"من عبد الله حفيد رسول الله، أمير المؤمنين أبي علي محمد بن عبد السميع بن السبط بن علي البوني، إلى الخارجي عبد الرحمن بن رستم، لعنه الله، وعجل به إلى جهنم وبئس المصير، رافع راية الضلالة البكماء، وناصر إبليس على الشريعة السمحاء، إن جاءك كتابي هذا فأتني ومن معك، تائبين مستسلمين، لمنهج الله ورسوله متبعين، وإلا أرسلت إليك جيشا أوله عندك وآخره عندي، يفل الحديدَ، ويصير الصخور قديدا، يبيدكم عن بكرة أبيكم، ييتم أطفالكم، ويستحيي

نساءكم، ويثكل أمهاتكم، ويحرر المؤمنين المستغفلين من جبروتكم وسحركم، والسلام على من اتبع الهدى".

وسريعا طوي كتابه كما كان، سلمه إلي وهو يقول:

-كلي ثقة فيكما، أنتظر عودتكما مكللين بالنصر.

## 5

## شعيب بن المعروف المصري والنكار

حين كنا على مشارف تيهرت، لم نجرؤ على اقتحامها مباشرة، كنا نتوجس من كل حركة، ونتجنب التقاء الناس أكثر من السابق، فقد يلاحظ أي أحد غرابتنا، وقد يشك فينا، وهي أمور كافية ربما تأخذ بأيدينا إلى الموت، وكانت هبة أشد حذرا مني، صارت تحسب لكل خطوة تخطوها، كل ما مر بها كان صادما مريعا، غير أن ثقتنا بالإمام في تيهرت كانت تشجعنا على المضي قدما، لقد بدا لنا عميق الإيمان شديد التقوى، يجنح إلى العدل، واحترام الناس وتقديرهم مهما كان اختلافهم معه، سألتني هبة وهي تقضم قطعة خبز امتصت الحرارة كل ما فيها من ليونة، وبعضا من حبات التمر.

-كيف تقدر مغامرتنا هذه؟

-لا تفرق عما سبق، هي لعبة لا بد من أن نسير على دربها إلى النهاية.

وتحسست حركة قريبة، تلفت بين هضبتين كبيرتين، شاهدت قافلة وقد دنت منا كثيرا، مئات من الجمال وعشرات من الفرسان، تتقدمها وتحيط بها، نبهت هبة التي ظلت مستلقية تعالج خبزها وتمرها.

-إنها قافلة تقترب منا، سنختلط بأهلها وندخل المدينة، لن ينتبه أحد إلينا.

وأسرعنا نغير ملابسنا ونجثم عند ظل شجرة ضخمة، دلت الآثار حولها أنها تتخذ لراحة المسافرين قبل دخول المدينة، وصلت القافلة،

صاح قائدها في الجميع دون أن يترجل من فوق صهوة فرسه، وقد بدت في صوته بحة.

-في صدر هذه الهضبة حطوا الرحال، لابد أن نستريح وتستريح الجمال والخيل قبل دخول المدينة.

وهب الرجال ينيخون جمالهم، التي تعالى هديرها هنا وهناك كأنما تعلن فرحها بنهاية رحلة طويلة شاقة، ممتزجا بصيحات الرجال وهم يتبادلون التعليمات، ويتعاونون على إنزال الأمتعة، عكف بعضهم ينصب خياما، وراح بعضهم الآخر يجر الأنعام إلى بئر قريبة، وأسرع غيرهم لإضرام النيران، وإعداد الطعام، كنا أقرب إلى الخيام، حيث تجمع عشرات الرجال والنساء والأطفال، وغط كثير منهم في نوم عميق.

اقترب منا فارس ملثم، وقد حرر فرسه من لجامه، قمت ألتقيه، ودون مقدمات سألني وفي عينيه حدة.

-لا يظهر أنك جئت معنا في القافلة.

لم أكن أنتظر منه ما فاجأني به، فاضطربت كلماتي بين شفتي، أمسك بيدي يريد إجلاسي، غير أن هبة شدتني من يدي وجذبتني بعيدا عنه مغمغمة:

-ما يريد منا؟

لحق بي الفارس وأمسك بذراعي مرة أخرى، وأعادني إلى حيث كنا، وفي عينيه لهيب مخيف.

-دع حريمك بعيدا عنا، أنت ضالتي.

هزتني كلماته، فخانتني خطواتي، وأنا أقلب الطرف في الجموع كأني أستأنس بها، صاحت فيه هبة:

-ما تريد منا؟ ابتعد عنا.

أشرت بيدي إليها أهدئها،وجلست معه، وقريبا مني جلست هبة

أيضا، تتابع ما يدور بيننا.

كانت رغبة الفارس الملثم أن يعرف كل صغيرة وكبيرة عن المدينة، وعن حكامها، وحركات المعارضة داخلها، كما كان يرغب في معرفة كل شيء عني، وعن سبب مجيئي إلى هذه المدينة.

وتبادلنا حديثا طويلا متشعبا، كان يستدرجني من خلاله إلى ما يريد، وكنت أتسلل من بين أسئلته، متهربا من فخاخها، قال لي أخيرا.

-إن المسلمين جميعا يحملون في أعناقهم دم إمامهم، وإن لم يجاهدوا للاقتصاص له، فسيسألهم الله عنه يوم القيامة.

ثم حدثني بعدها عن الجريمة النكراء التي وقعت ذات تاريخ بئيس، وراح ضحيتها غدرا الشهيد الإمام علي عليه السلام، مستعملا كل قدراته لشحن عاطفتي الإيمانية.

في نهاية جلستنا، أخبرني بأن أتباع الإمارة التي قامت في تيهرت هم من سلالة الملعون عبد الرحمن بن ملجم، وأن الانتقام لإمام المسلمين وخليفة رسولهم لا يكون إلا بإبادتهم جميعا.

ثم تركني كاليائس، وأسرع مبتعدا بين المسافرين، وعجلت مع هبة نغادر المكان، سألتني:

-هل هناك قرابة بين عبد الرحمن بن ملجم وعبد الرحمن بن رستم؟

لم أجب، كنت أتلفت خلفي حذرا، وقد تحرك بعضهم يلتحق بنا، كان من بينهم الفارس الذي تجاوزنا ظمئا إلى دخول المدينة.

بلغنا حافة نهر مينة، الممتد من أعالي الجبال إلى داخل المدينة، يضرب الأعراب حوله خيامهم وقد عادوا حديثا من رحلة البحث عن الكلإ، كان الجو باردا، وكانت الرياح تثير أحيانا زوابع ترابية تلزمك التوقف، وتناهى إلينا صياح متحمسين، قصدنا المكان، كان المئات يحيطون بمتناظريْن، أحدهما مالكي المذهب وفد من القيروان منذ عام،

وأقام بالمدينة، وآخر معتزلي من أبناء تلك الخيام، لم يطل بقاؤنا حيث كنا، رحنا نبتعد عن المناظرة خشية أن ينفجر فيها بركان العنف.

وتلاحق رجال القافلة حتى اكتظ بهم باب الأندلس، ووقف الحراس عند المدخل يراقبون الوافدين، يصيحون في الجميع بين حين وآخر تحذيرا من جواسيس شيعة تسللوا داخل المدينة، لقتل الإمام، والحقيقة أكبر من ذلك، لقد تبين لي وأنا أطوف بين القادمين في القافلة، أن التجار فيهم قلة، وأن معظمهم كان يحمل حقدا ويسعى لثأر، أمويون وعباسيون، وأندلسيون، وشيعة، ومالكيون، وبربر، ركبوا جميعا هذه القافلة الوافدة من القيروان وسيوفهم ظمأى إلى الدماء.

ولم يطل تخفينا في المدينة، حتى هزتنا المفاجأة، والناس تلوك نبأ وفاة الإمام عبد الرحمن بن رستم، ولبست القلوب والوجوه حزنا شديدا، وأطلت من العيون دموع حزينة حائرة، وتجمع أمام مقر الخلافة خلق عظيم، يتحدثون عن مناقب الرجل وكراماته، ومن بينهم كان يندس جواسيس وأصحاب ثارات، ولمحت من بعيد الفارس الملثم وهو يقفز من مكان إلى آخر كأنه نمر، يشق الصفوف ويخترقها يريد طليعتها، وما كدت أتتبع أثره حتى غاب عن عيني، قالت هبة بحزن وهي تلتصق بي.

-يظهر أننا ضيعنا أملنا في مقابلة الإمام، كان الموت أسبق منا.

وسكت الناس فجأة وهم يرون باب الخلافة يفتح، ويخرج منه رهط من الرجال، بعمائمهم البيضاء، كانوا ستة جلسوا جميعا على كراس أعدت لهم، لحق بهم سابعهم وجلس وسطهم، وقد بدا عليه حزن شديد، يمد يده بمنديله إلى عينيه يمسح عنهما دموعا قهرت إرادته، وتعلقت به العيون تنتظر كلمته، قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

- أيها الناس من كان يعبد عبد الرحمن بن رستم فإن ابن رستم قد مات.

وأجهش يبكي، فارتفع لغط الناس وضجيجهم، بين منتحب، ومكبر، ومهلل، وسقط بعضهم مغشيا عليه، وفي لحظات ارتفعت أصوات من يمين وشمال تطالب بالكشف عن خليفة الإمام، ووصلت الآذان أسماء مختلفة ممن يطالب الحاضرون بمبايعتهم، مد الخطيب أصابعه الطويلة، طالبا من الجميع لزوم الصمت، وقال:

-على نهج سلفنا الصالح سيكون اختيار الإمام، ولن يكون حتى يتلقى البيعة من كل المسلمين.

وسكت معظم الناس ينتظر الجديد الذي سيكشف عنه الخطيب، في وقت ارتفع صوت الفارس الملثم يقول:

-ومن سلفكم الصالح هذا؟

ونظرت خلفي حيث كان يقف ملثما يمتشق سيفه، غير مبال بوجودي تماما، ولعله لم يرني أصلا، وواصل الخطيب:

-إنها وصية عبد الرحمن بن رستم، على نهج خليفة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لقد أوصى بأن تكون الخلافة في واحد من سبعة اختارهم لتقواهم وورعهم وعلمهم.

تمتم الفارس خلفي.

-عمر من السلف الصالح!؟ عليه اللعنة.

ثم رفع صوته متحديا.

-السلف الصالح، هم آل البيت وأتباعهم، ولم يكن عمر إلا سارقا لحقهم، منحرفا عن نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وما كاد الناس يلتفتون إليه، حتى ارتفع صوت آخر بعيدا عنا، قائلا:

-إنها أرضنا، ولن نسمح من اليوم للفرس بأن يحكموها.

غير أن الخطيب لم يبال بهذه الأصوات التي كادت تفسد عليه ما كان ينوي الوصول إليه، فواصل:

- أيها الناس، أنتم تعرفونني أنا مسعود الأندلسي، وتعرفون مكانتي في العلم، وتعرفون قربي من الإمام رحمه الله ورضي عنه، وقد اختارني من بين السبعة، ولست أريدها، ولا أرغب فيها، وقد اختار معي، أبا قدامة يزيد بن فندين اليفرني، وعمران بن مروان الأندلسي، وأبا الموفق سعدون بن عطية، وشكر بن صالح الكتامي، ومصعب بن سدمان، وعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، وهم جميعا أولو علم وتقوى، ولا نزكي على الله أحدا.

واضطرب الناس من جديد وارتفع لغطهم، صاح بعضهم.

-رضينا بعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم.

صاح آخرون كأنما يردون عليهم.

-لا نريدها مملكة، لا نريدها ملكا عضوضا، والله ما فسدت بلاد الإسلام إلا حين تأمر علينا بنو أمية وبنو العباس.

وقاطعهم الفارس الملثم وقد غير مكانه غير بعيد عني.

-نبايع آل بيت رسول الله.

واختفى بين الحشد، وقد ارتفعت الرؤوس تبحث عن صاحب الفكرة، وتقدم آخر إلى المنصة، ووقف أمام الخطيب مسعود الأندلسي، وقال:

-يا أبناء الإباضية الأطهار، والله الذي لا إله إلا هو، لن يصلح لقيادة الناس، وحفظ دينهم الذي ارتضاه الله لهم، إلا عارف هذه الأمة وشيخ علمائها، شعيب المصري، وإني لأدعو الأمة إلى مبايعته.

وارتفعت بين الجميع همهمات استنكار، أسكتها الخطيب بحركات من يده وواصل خطبته:

-أما أنا فقد بايعت على كتاب الله وسنة رسوله، العلامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، إماما لهذه الأمة، وعلى هذا فقد أجمع إخواني العلماء الذين اختارهم إمام الأمة وفقيدها عبد الرحمن

بن رستم رحمه الله ورضي عنه، وأنتم تعرفون من هو عبد الوهاب علما وخلقا واستقامة، حتى صار قدوة لنا جميعا، وقد زاده الله بسطة في الرزق يمكّنه من سد كل عجز في بيت مال المسلمين.

وقام المصطفون خلف الخطيب، يصافحون الإمام الجديد، ويعلنون أمام الناس بيعتهم له، وسمعت هنا وهناك صيحات تفجع وندبة، واكربلاء، واكربلاء، تقابلها صيحات شبيهة أكثر وضوحا، وانهروان وانهروان، ثم حمل الإمام الجديد فوق الرؤوس وانطلق الجميع يطوفون به المدينة، وقد تعالت تهليلاتهم وتكبيراتهم.

عند العصر التقت الحشود في المسجد الجامع، لمبايعة الإمام الجديد، حتى صلاة المغرب، ثم حتى صلاة العشاء، حيث يلقي الإمام كلمته ويصلي بالناس، غير أن المدينة الواسعة لم تخل من تجمعات هنا وهناك، خاصة أمام المساجد التي تختلف باختلاف المذاهب والطوائف، وظهرت فتاوى راحت تتناقلها الألسنة سريعا، وانتشر رجال الشرطة في كل مكان، تحسبا لأي فتنة قد تندلع.

راحت الحشود تغادر الساحة العامة، التي بدت خاوية تقريبا، ورغم أننا اكترينا بيتا في أعلى المدينة، إلا أننا كنا نفضل اللجوء إلى "المعصومة"، كنا طيلة وجودنا السابق قد ربطنا علاقة صداقة قوية مع عميدها، الذي كان موسوعي المعرفة، متحرر الفكر، لا يكشف عن انتمائه، غير أنه بدا لنا أقرب إلى الاعتزال، لقد وفر لنا الرجل غرفة من غرف طلبة العلم، وكوم حوالينا عشرات الكتب، تعشينا معه كسرة وشيئا من الزيتون واللبن، وغرقنا في كتبنا على ضوء قنديل زيتي، نتهجى حروفها كأنما نفك طلاسم، ونهتز طربا على وقع تقليب صفحاتها، وكانت هبة أكثر شغفا مني بذلك، كل ما يهمها هو أن تبحث عما كتب عن الطيور، لتعرف حقيقة الطائر العجيب الذي

أوصانا القطب بالبحث عنه، ولفت ذلك انتباه عميد المكتبة، فأسرع إلينا بكتاب وهو يقول لهبة :

-محظوظة أنت، وصلنا هذا الشهر كتاب جديد، عنوانه الحيوان لأشهر كتاب العرب قاطبة، عثمان بن بحر الجاحظ، لم أتصفحه بعد، ولعله لّما يقرأ بالشرق، وحتما ستجدين فيه ضالتك .

وتهجيت لهفة كبرى في عيني هبة، التي أسرعت تعود بالكتاب، وتنزوي منكبة عليه تقلب صفحاته باهتمام عميق.

وسهرت أنا مع العميد، أراني في البداية قصبة يراع بديعة، تزينت بخطوط خلابة، يمكن أن تستعملها قلما في جهة منها، ونايا في الجهة الأخرى، أسرعت أقول وأصابعي تحتضن كأس الشاي:

-إنها عبقرية عمار العاشق.

-صدقت،تعرفه؟

سأل مندهشا، فرحت أحدثه عن زيارتنا معبد عمار العاشق، وعن فيض كرمه، وعبقرية إبداعه التي أدهشتنا، وحدثني عن قصة عشقه الغريبة، ومغامراته مع حبيبته نجلاء، وعما عاناه من حصار أهلها، حتى صار حديث الأيام والليالي، ثم سأل متعجبا وهو يطوي يديه ويمطط شاربيه:

-أتدري ما سبب كل ذلك؟

حدقت فيه أنتظر إجابته، سكت لحظات يحدق في ثم واصل:

-لا شيء غير اختلاف مذهبي بسيط.

ضحكت معلقا:

-ولا مذهب لعمار إلا الفن والحب، وهو مذهب البشر جميعا لو علموا.

تنهد العميد بعمق وقال:

-كلما ضاقت الرؤيا اتسعت الأحقاد يا صديقي.

قالها، ارتشف ما تبقى في كأسه، ونهض يغادرني.

مع إشراقة الصباح كانت عيوننا تعانق أولى أشعة الشمس الدافئة، وهي ترسم مع رؤوس أشجار السفرجل والزيتون لوحة بديعة، بعثت في نفسينا نشاطا وسعادة، كنت أشعر بجوع شديد، وحمدت الله على أن أحد الخدم قد حمل إلينا بكرم حاتمي وابتسامة عريضة طبقا كبيرا من الطعام، ضم كسرة ساخنة وزيتا وفواكه طازجة، اكتفت هبة بحبات زيتون أكلتها بسرعة، وهي عادة دأبت عليها منذ صغرها، لا تأكل صباحا إلا نادرا، فكان كل الطبق من نصيبي، انكببت ألتهمه وحديث العميد يصلنا عبر النافذة بحماس عن الإمام الجديد، عن علمه وأخلاقه وتواضعه، كأنما هو صورة مطابقة لأبيه أو أحسن، بل هو صورة مطابقة للخليفة الثاني عمر بن الخطاب، حين خرجنا من بوابة "المعصومة" كان العميد يشرف على عمال ينظفون مدخلها، أبديت له سعادتي بما قاله عن الإمام، ابتسم وهو يقول مربتا كتفي:

–حقا حقا، غير أن ثمن الحرية قد يكون مكلفا، كثير من الفرق والطوائف شرع تتفرخ بسرعة عجيبة في الإمارة، ستتحاور، ثم تتجادل، ثم تتقاتل، وتهدم كل شيء.

خرجنا من الساحة العامة، اخترقنا الشارع الأيمن الذي بدا ينحدر أكثر من اللازم، حتى ليخاله الرائي واديا تحت شريانه في الصخور عبر عشرات القرون، كانت رغبتنا في زيارة أكبر أحياء المدينة وأعرقها، حيث يسيطر إباضيو نفوسة، وهو رغم امتداده، كثيف السكان، تلتصق بناياته حتى لتغدو بعض شوارعه أشبه بأذرع أخطبوط، تتغشاها ظلمة ورطوبة، وتمر إلى حدائقها الملتفة مياه تترقرق في سواق متداخلة، ومع اقترابنا إلى مركزه، راحت تبلغ مسامعنا هتافات لم نتبين معانيها لكثرة تزاحمها، دخلنا ساحة الحي، حيث يقام مسجد خاص بمذهب الطائفة،عند بابه يقف شاب يفيض حماسة، يدعو العشرات حوله إلى

إسقاط الإمام عبد الوهاب، لاعنا الوهابية وأتباعها، داعيا إلى مبايعة شعيب المصري، مقارنا بين الرجلين،معددا مزايا الثاني في أفضليته وأسبقيته، كاشفا عيوب الثاني في تأخره وطمعه، وفاجأنا مسلحان قطعا علينا متابعتنا الخطبة، ودفعانا بغلظة، ولحق بهما آخران يدفعان أمامهما شابا، وفتى حديث الفتوة، يمارسان عليهما عنفا شديدا، صرنا أربعة نركن إلى جدار بستان، قال أحد المسلحين يوجه كلامه إلي وهو يستل سيفه، وفي عينيه نار سخط.

-قطعا لستما من أتباع الإمام شعيب، بل حتما أرسلتما للتجسس علينا، غادرا المكان أو نكلنا بكما.

ولم ننبس بكلمة واحدة، استدرنا وسلكنا الدرب نفسه صعودا، صاح بنا من خلفنا مواصلا:

-خذا معكما هذا الشاعر الأحمق، وابنه.

قالت هبة وقد أحست أننا ابتعدنا عنهم بما يكفي.

-ماهذا التحكيم للسيف في كل شيء؟

-يا حبيبتي، ارتياد هذه الأماكن المنعزلة عن مقر الخلافة قد يشكل خطرا كبيرا علينا، المدينة مترعة بالفرق والجماعات، ويجب أن نغادرها سريعا، ستكون الأيام القادمة حبلى بالصراعات، وسيذهب ضحيتها كثير من الأبرياء.

لم تعلق هبة على ما قلت، كثيرا ما تجيب بصمتها، خلتها قالت لي:وهل بقية الأماكن سالمة؟ أينما نول فهناك جماعات وفرق متناحرة، لكن الشاعر تدخل معلقا على كلمتي:

-لعلها تكون أكثر أمنا، سأضرب في أرض الله الواسعة طلبا للمجد، ما عادت تسعنا هذه المدينة.

صدق الشاعر، المدينة حبلى بالفتن، والناس عطشى إلى الدماء،

ولعل الأفضل لنا هو أن نرافق الشاعر في سفره، سنزور سريعا مقر الخلافة، أو كما يسميه الناس هنا، مقر الإمامة، لابد من ملاقاة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، التفت إلى هبة:

-ما رأيك هبتي؟

-يجب أن نغادر بأسرع ما يمكن، نعزي الإمام ونهنئه في الآن ذاته ثم نغادر.

في الساحة الكبرى افترقنا، انعطفنا باتجاه مقر الإمامة، واندفع الشاعر مع ولده إلى الشمال باتجاه باب المطاحن، قائلا لنا:

-يمكن أن تلحقا بنا خارج المدينة، أنا لن أودع أحدا فيها.

وانطلق برفقة الفتى، واندفعنا نحن إلى المقر،هالنا ونحن نشق الطريق ما كنا نراه في حركة الناس وهم في صعود ونزول، جيئة وذهابا كأن خطبا ما قد حل، ولم نكن نجرؤ على سؤال أحد، على وجوه الجميع يظهر غضب، وحماس، وخوف، أمزجة مختلفة ومشاعر متعددة، ومعظم من رأينا كان يمتشق آلة للقتال ولو عصا.

وتشجعت هبة وهي تلتقي عجوزا تركن إلى ظل جدار وقد أخذ منها التعب مأخذه.

-ما الذي يقع يا خالة؟

حدجتها العجوز طويلا واستلت لسانها تبلل شفتيها.

-إنها الفتنة العمياء يا بنيتي، إنها الفتنة العمياء.

وسقتها هبة من قُلة كانت معها، كأنما تشجعها على مواصلة الكلام.

-والفتنة نائمة يا بنيتي لعن الله من أيقظها.

وتحرقت شوقا للتفاصيل، فجلست إلى جوارها كأنما أطمئنها إلينا، واصلت العجوز دون أن تصرف نظرها عن هبة.

-إنهم النُكّار، النُكّار يا بنيتي خذلهم الله، يحاصرون مقر الإمامة،

يسعون لقتل الإمام.

ودون أن نسألها عن حقيقة هؤلاء، وعن مذهبهم وفرقتهم، أسرعنا باتجاه القصر، كانت أنفاس هبة تكاد تنقطع، وهي تقول:

-لا بد أن نبلغه الرسالة، وليقع له ما يقع بعدها، سنقتل شنقا عند ذلك الأمير إن لم نبلغها، تعبت أنا من كل هذه الرحلات، فليدعونا لحالنا، لا نريد منهم شيئا سوى أن يتركونا وشأننا.

سألت وقد بدا لي القصر من بعيد.

-والطائر، هل نهنأ قبل أن نراه؟

ولم تجبني، كنا قد اقتربنا كثيرا، ولفتنا أنظار المتجمهرين، الذين انصرفوا سريعا إلى الخطيب، الذي لم يكن يوجه كلامه إليهم، بقدر ما كان يقصد به من بداخل مقر الإمامة، استمر الخطيب يقول وهو يلوح بسيف في يمينه:

-اسمع يا عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، ما بايعناك على ضلالة أردتها، ولن نبايعك عليها ما أقلتنا الغبراء وأظلتنا السماء، وماكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولا من جاء بعده من الخلفاء الراضين المرضيين ليخلفهم أبناؤهم وأهلوهم، وهم من علمت قربا من الله تعالى، وإنك لتريد أن تسن في المؤمنين بدعة تجري لها الدماء وديانا، كما سنها من قبلك بنو أمية وبنو العباس.

وقد دفعْنا شرك بالتي هي أحسن لكنك تماديت وأبيت، وقلت هؤلاء نكار فجار، ومعاذ الله أن نفجر في دين الله، ولكننا نكار للباطل وطلاب للحق، نقدم لذلك دماءنا وأرواحنا رخيصة، وقد اختطف مجاهدونا ابنة أخيك أروى وزوجها المنتصر بن اليسع بن مدرار حاكم الصفرية، وابنهما ميمون، وهم في طريقهم من أقصى بلاد المسلمين إليك، وإنا لنمهلك إلى العصر، وإلا والله لنصَلبَنهم في جذوع

الأشجار، ولنقطعن أيديهم وأرجلهم من خلاف.

وسكت الخطيب، فارتفعت الحناجر بالتهليل والتكبير، وارتفعت الأيدي بالسيوف والرماح، وتحركوا يغادرون المكان متدافعين، التفت أحدهم إلينا مستنكرا وصاح.

-ياقوم، جاسوسان ورب الكعبة.

ولم يدم الأمر طويلا، حتى تم تكبيلنا وجرنا أسيرين، دون أن تنفعنا توسلاتنا ولا أعذارنا المتكررة، بلغنا سفح جبل خارج المدينة، حيث كان يتجمع خلق كثير من النكار، في ألسنتهم حدة، وفي سيوفهم ظمأ، وخلفهم تم ربط الأسرى بحبال غليظة، ووقف بالقرب منهم سيافان مستعدين لتنفيذ حكم الإعدام متى ما أعطيت الإشارة، وسريعا تم تكبيلنا أيضا بالقرب منهم.

ظلت أروى تمسك بيد زوجها المنتصر، وقد زاغت عيناها، وظل ابنهما ميمون لا يتوقف عن البكاء، كنت ألتصق بهبة أطوق خصرها بذراعي، تسري في جسدينا رعشة شديدة، وقد علت صفرة الموت محياها، ترفع فيّ بصرها كأنما تريد أن تقول شيئا، ثم تخفضه، قلت متمتما متألما:

-وداعا حبيبتي.

-وداعا حبيبي.

وانزلقت من عينيها دموع كئيبة، ثم ما فتئت أن رفعت رأسها تتابع طائرا ظل يحوم حول المكان، انخفض سريعا ثم اندفع إلى الأعلى كأنما لا يرغب في أن نراه، ورحت أتابعه معها، هل هو الطائر العجيب الذي حدثنا عنه الشيخ، وانزرع في قلبي أمل جديد، ورحت أنقل بصري بين الطائر مرة، وبين هبة دون أن تصرف نظرها عنه لحظة، بحثا عن أمل ينقذنا مما نحن فيه، واقترب الطائر منا من جديد حتى صار

ملمحه واضحا جدا، وسرى في قلبينا قحط شديد، لم يكن الطائر إلا نسرا صغيرا، كأنما أدرك بغريزته أن جثثا سترمى هذا اليوم في العراء، وستكون له وليمة فاخرة.

وفي لحظات من تيه وغفلة وهلع شديد، انقض فرسان الإمام على أعدائهم كأنهم الجن، وشبت معركة كأنها جهنم، راحت تبتعد عنا شيئا فشيئا، وظل السيافان يشاركان فيها تارة ثم يعودان إلينا أخرى، إلى أن انخرطا فيها كلية، لكن المعركة بدأ أوارها يخفت رويدا رويدا، واندحر النكّار يلفهم الليل الذي غطى أفق المدينة الغربي، وقد هبت رياح باردة تلسع العظام.

6

## تحت ظلال السيوف

كانت حالتنا بائسة، على ملامحنا يعرش إرهاق وتعب وخوف لم يستطع فرج النجاة أن يمحوها، لم أكن أحتاج الآن إلى أكثر من حمام دافئ، وكانت هبة حزينة تغشى عينيها غيوم كثيفة كأنما ترغب في الهروب إلى النوم، رافقنا إلى مقر الإمامة جمع من الفرسان بإشراف قائد الجند شخصيا، ومعهم دليل الإمام، والعلامة مصعب بن سدمان، الذي تولى حمل الطفل ميمون سبط عبد الرحمن بن رستم، والذي يظهر أنه تعب وأمن في حضن الشيخ فنام نوما عميقا، فيما امتطت أروى فرسا شهباء وامتطى المنتصر فرسا سوداء، يقودهما عبدان أسودان.

دخلنا دار الإمامة من باب خلفي غير ظاهر تعرش عليه أشجار كثيفة، وينفتح عند مرتفع صخري، أخذنا مباشرة إلى الحمام، حيث نشط بعض العبيد في القيام بدلكنا وتعطيرنا، في حين حولت هبة وأروى مع الطفل الصغير إلى حمام النساء.

بعد الحمام كنا أكثر راحة وهدوء،وقد ضمتنا قاعة واسعة ذات زرابي ونمارق، قدمت لنا فيها أطعمة مختلفة، كسرة وحليب نوق وتمر وعسل وماء فرات.

ولم يتوقف مصعب بن سدمان عن وعظنا بآي القرآن، يرتلها سريعا ثم يغرق في شرحها وتحليلها، كان همه الأكبر أن يتحدث عن الانحراف الذي لحق الإسلام ومنهج النبوة الصادق في الاعتقاد خاصة،

بما أضيف إليه زمن الفتنة الكبرى وما بعدها من تأويلات ونصوص قدست مع الزمن، مشيرا إلى أن الفتنة ستستمر إلى قيام الساعة، فالحياة الدنيا دار ابتلاء، وطوبى للفرقة الناجية.

وحولنا بعدها إلى مجلس الإمام الذي نشط يستقبلنا، كان كثير الشبه بوالده، كث اللحية، في عينيه فطنة وذكاء، وعلى ملامحه تواضع وتقوى، قمنا إليه، صافحناه بحرارة، جلسنا من جديد يلفنا الصمت، جلس وحوله بعض مساعديه ومستشاريه، عرفت منهم أبا سلمان التيهرتي، وعمران بن مروان الأندلسي، دخل حارسه الشخصي، وهمس في أذنه، لم يزد الإمام على أن حرك رأسه موافقا، ومد عينيه يتابع حركات الحارس وهو يغادر مسرعا، نظر فينا مبتسما وحمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيه وأصحابه وقال:

-أهنئكم على نجاتكم من الفئة الباغية التي اختطفتكم، وأطمئنكم إلى أن حكم الله سيمضي فيهم بالعدل والقسطاس، ما قطع رجالنا وأبناء دعوتنا آلاف الأميال من المشرق إلى بلاد المغرب إلا ليقيموا دولة العدل والحق، ولن تقوم إلا بقوة رادعة تحميها وتقيم الأمن والدعة في ربوعها، كما تحتاج إلى الحرية والرخاء والعلم الذي سنسعى بكل ما نملك إلى أن نوطد أركانه في ربوعنا، وإني لعلى ثقة من أننا بذلك سنقضي على الفتنة في الداخل، وعلى أعداء الخارج أيضا.

وسكت وهو يشير إلى عمران بن مروان الأندلسي، الذي أسرع يخرج ورقة، بسطها أمامه، وقال:

-ذي رسالة تهنئة، وصلت من عبد الرحمن الداخل حاكم الأندلس، يهنئ الإمام بتوليه الإمامة، ويعرض دعمه الكامل لدولته، مذكرا باليد البيضاء التي أسديناها له أيام محنته.

قاطعه أبو سلمان التيهرتي قائلا:

- الأندلس بلد الخيرات، ولا نحتاج منه إلا أن يعمق علاقة التجارة بيننا وبينهم، نبيعهم سلعنا ونبتاع سلعهم، ونحن كما تعلمون واسطة العقد.

ضحك الإمام لهذا الوصف وقال:

-صدقت أبا سلمان، يا كبير التجار، ستكون دولتنا جسرا لعبور السلع مشرقا ومغربا، ومن أرض السودان إلى بلاد الأندلس والإفرنج، غير أن هناك ما يقض مضجعي.

- تقصد دولة الأدارسة، وسعيها لإسقاط دولتنا الفتية، نحن نتابعها جيدا وسنكون لها بالمرصاد.

رد قائد الجيش وفي حديثه ثقة كبيرة بالنفس، وسرى البشر على وجوه الجميع، وردد الإمام:

-الحمد لله.

ووجدت الفرصة سانحة، فقمت في المجلس، أخرجت الرسالة من بين ثنايا ثيابي، وقلت:

-أحمل إليك سيدي الأمير رسالة من أعدائك المتربصين بك.

وتغيرت ملامح الجميع، ورقصت عليها حيرة واضحة، نظر بعضهم إلى بعض، ومد الإمام يده فتسلم الكتاب، سلمه مباشرة إلى عمران بن مروان الأندلسي، الذي فضه وراح يتهجاه، يُسِرّ كثيرا من جمله، ويجهر ببعضها، علق الإمام على الجملة الأخيرة وقد احمر وجهه.

-وهل يعتقد عدو الله أنه على الهدى.

نظر إلي في ريبة، وفي لحظة أحسست أن مشاعره قد تغيرت نحوي، تمتم.

-أنت رسول.

قام من مكانه، فقام مستشاروه، خطا خارجا وهو يقول:

-لابد أن نعد العدة الآن.

وخرج فأسرع الجميع يلتحقون به، ولم يبق في الغرفة إلا أنا، هي فرصتي للهروب، إن القوم في غضب شديد، لكن أين هبة؟ سرى خدر النعاس في رأسي، وأحسست بارتخاء في جسدي.

كان السيافان يجراننا معا، أحدهما ربطنا إلى جذع شجرة ممدد، كأنما قطع حديثا، والثاني كان يعد سيفه ليهوي به على رقبتينا، كنا نتصبب عرقا، وقد بلغ منا الخوف مداه، أمد يدي اليمنى أضغط على أصابع هبة كأنما أودعها، كانت حالتها أسوأ وجسدها يرتعد، وقد اشتد تصبب وجهها عرقا، تناهى إلى أسماعنا تغريد طائر لم نسمع له مثيلا، التقت أعيننا، هل هو أمل يطل من جديد؟ غمزني السياف بحد سيفه، صرخت متألما، استيقظت من كابوسي، كانت هبة عند رأسي توقظني، تمتمتُ.

-هبة، هبة..

ورحت أنظر حوالي جاحظ العينين، تكاد أنفاسي تنقطع، صاحت في هبة، تنبهني من فزعي:

-انتبه، لا بد أن ننصرف، الكل في غفلة عنا.

واندفعنا نخرج، خضنا في لجة الأشجار، عبر الطريق السري ذاته الذي دخلنا منه، كان الحراس يقفون بعيدا عن المدخل، اضطررنا إلى أن نعود عبر طريق ضيق متعرج، يكاد يلامس سفح جبل جزول، وانعطفنا عائدين لنلج شوارع المدينة، المحيطة بمقر الخلافة، وقد عجت بالمارة ورجال الشرطة، رحنا ننحدر إلى قلب المدينة وقد بدأت جحافل الظلام تزحف من بعيد تبتلع النور ابتلاعا، قالت هبة متسائلة:

-إلى أين ننحدر؟

-هل ترين مكانا أأمن لنا من المعصومة؟

لم ترد، وراحت تحث السير إلى جنبي، حين وصلنا "المعصومة" كانت

بوابتها مشرعة، وكان قريبا منها يجلس عمار العاشق القرفصاء، اندفعنا إليه نحييه، لم يأبه بنا، ظل ينكمش على نفسه في غير مبالاة بكل ما حوله، رافضا أن يجيب عن كل أسئلتنا المتكررة، يتغشاه حزن شديد، اسود له وجهه الأسمر، تركناه ندخل "المعصومة"، كان العميد يقف متكئا على الباب، يطبق ذراعيه، سارحا في فضاء التأمل، أسرعت أسأله عن عمار، سار معنا في الرواق الطويل، أخبرنا أن عمار العاشق يمر بأصعب أيام حياته، لقد زُوجت نجلاء رغم أنفها، ضاق إخوتها ذرعا بأحاديث الناس، وضاقوا ذرعا برفض أختهم لكل خطابها، واستسلموا أخيرا لإغراءات أبي سلمان التيهرتي، فزفوها إليه عروسا، تتجرع سهام الحسرة من وراء أسوار قصره، ويتحرق عمار ألما وقد ضاعت منه حبيبته إلى الأبد دون وجه حق، وفجأة غير العميد دفة الحديث وهو يقول:

-لا داعي للكلام الآن، يظهر عليكما تعب شديد، استريحا قليلا، سآتيكما بطعام العشاء، عندي لكما مفاجأة كبيرة جدا.

تركنا وخرج، أزالت هبة الستار الأسود الذي كان يغطي رأسها، وروحت به وجهها ورقبتها متنهده، طوقتها بذراعي، أسندت رأسها على كتفي، وهمست.

-اشتقت إليك أيتها الأميرة.

أغمضت عيني، وأسندت رأسي على رأسها، وسلمنا قلبينا للصمت والأحلام، اشتدت الضوضاء خارج المكتبة، كأن الساحة امتلأت فجأة باعة ومتناظرين، ودون أن أغير وضعيتي الساحرة، وقد تسلل دفء عسلي إلى أعماق أعماق قلبي، سألت بصوت خافت:

-ماهذه الضوضاء؟ هل هو كابوس جديد؟

ودون أن تتحرك هبة أيضا، أجابت.

-لن يكون أفظع مما مر بنا، ولا أفظع من الكابوس الذي مر

بك اليوم.

واستويت في جلستي، وقد ذكرتني هبة بحلمي المفزع، فرحت أقصه عليها بتفصيل دقيق، وعلى ملامحها راحت ترتسم كل الانفعالات، خوف.. وفزع.. واستهزاء.. وابتسام.. تزيدها كلها جمالا، كأنما يأخذ وجهها شكل الطبيعة في أبهى حليها.

وأحسسنا بالعميد يعود، فانصرفنا عما كنا فيه، دخل يحمل صينية الطعام، وخلفه مساعد له يحمل أخرى أيضا، وانهمكنا في الأكل، الذي كان هذه المرة أكثر تنوعا، أجبان وزيوت، وخضر وفواكه، وأطعمة مما نعرف وما لا نعرف، كان الجوع قد عاث في البطن ألما، فلم نهتم بأي كلام من العميد، الذي انسحب خارجا، وهو يقول:

-هنيئا مريئا لكما.

لم يكن لنا من الوقت إلا ما نخصصه للأكل، كأنما نخشى نفاده، وشيئا فشيئا بدأت سرعتنا تتباطأ وبطنانا يشبعان، جرعت من قلة فخار صغيرة، مسحت شفتي، وأسندت ظهري إلى الجدار وأنا أحمد الله، مسحت هبة شفتيها بمنديلها وقد بدتا أشهى من أي وقت مضى، وقالت:

-قم لتغسل يديك وفمك.

وخرجنا، تحت شجرة سامقة تناوبنا صب الماء من القنينة، أحس العميد بنا فأسرع إلينا، معيدا تهنئتنا بالطعام، وقال:

-قلت إن لي مفاجأة لكما، لا أرى عليكما حماسا لذلك.

قالت هبة وهي تقوم.

-لأني لست متحمسة اليوم للقراءة، حماستي لشيء واحد فقط هو النوم.

ضحك العميد وقال:

-سيحضر الشاي سريعا، ثم نتحدث عن المفاجأة.

ودخل علينا عبد شديد السواد، تزين رأسه عمامة بيضاء خفيفة، بيمناه إبريق نحاسي، وبشماله كأسان كبيران، راح يصب فيهما، يرفع الإبريق بعيدا، حتى تتشكل في الكأسين رغوة كثيفة، وفعل خرير الشاي فعله في إثارة شهيتنا إليه، وفعلا رشفنا منه مالم نذق له مثيلا.

قال العميد وهو يجلس على كرسي يتابع ارتشافنا الشاي، فيما بقي العبد واقفا ينتظر طلباتنا.

-وفد على مكتبتنا "المعصومة" عصمها الله من كل شر، شيخ راهب، كأنما حاز معارف الدنيا والآخرة، وأعرف شغفكما بالبحث عن سر طائركما، وأكاد أجزم يقينا أنه يملك جواب ذلك.

ونشطت هبة تهب للاندفاع خارج الغرفة، ليس هناك شيء يشغلها أكثر من معرفة سر الطائر السحري هذا، غير أن العميد أشار بإصبعه باتجاه نافذة الغرفة وقال:

-ألم يثر اهتمامكما هذا الصخب خارج المكتبة؟ ماذا لو قلت لكما إن جند الإمام يبحث عنكما؟

وجحظت عيناي، ودق قلبي دقات متسارعة، تبسم العميد وهو يقف، دعانا إلى الخروج معه، أعادت هبة غطاء وجهها وتلثمتُ وخرجنا، كانت الساحة غاصة بالناس، تضيئها فوانيس مختلفة الألوان، وقد بسطت الزرابي في كل أرجائها، ووقفت هنا وهناك عشرات الفتيات متبرجات من مختلف الأعمار والأجناس والألوان والأشكال، معظمهن يفضن أنوثة وجمالا، التصقت هبة بي، أحسست أن غيرتها قد تحركت، لكزتني هبة تشير إلى أبي سلمان التيهرتي، وهو يتنقل بين فتيات شقراوات، يتأمل وجوههن على ضوء مصباح يحمله أحد عبيده، يفتح أفواههن يتأمل الأسنان، ويدس يده في صدورهن، ويجس امتلاء أجسادهن، رفع عينيه في النخاس وقال بخبرة التاجر.

-لولا عشقي للشقراوات ما رغبت فيهن، إن كان السعر مناسبا أخذتهن جميعا.

واشتبك مع مالكهن في صراع طويل حول السعر، يقدح الأول ويخفض، ويمدح الثاني ويعلي، وإن هي إلا لحظات حتى اتفقا، فأسرع أحد عبيد أبي سلمان يسحبهن خارج السوق، دون أن ينسحب هو، بل راح كثعلب يتشمم فرائسه، عند ركن قصي تناهى إليه صوت ابن رغلين يخوض معركة مع أحد النخاس، حث خطاه متمتما:

-لن تنالها وأنا حي يا بن رغلين.

كان النخاس يجلس على كرسي يكاد يلتصق بجاريتين سمراوين، يقف إلى جوارهما عبد شديد السواد، يرفع فانوسه يقربه من جسديهما ليسهل على المتحلقين رؤيتهما، وظل الجميع سكوتا يتابعون الحوار الساخن بين المالك الذي كان هادئا، وابن رغلين الذي لم يتوقف عن جسهما محاولا تخفيض قيمتهما.

وسمع الجميع صوت التيهرتي فأحجموا.

-وهل تقدِّر أنت يابن رغلين الجواهر؟

والتفت ابن رغلين مرحبا، لكن التيهرتي اختطف الفانوس من يد العبد وركزه في وجهي الجاريتين، ونشط النخاس قائلا:

-وحق الله ما رأيت أجمل منهما.

ومد أصابعه بمهارة يسبل شعرهما الحالك السواد على صدريهما، وفهمت الجاريتان الرسالة فتبسمتا وظلتا تغيران من وضعية الوقوف، ولم يزد أبو سلمان التيهرتي على أن طاف بهما بجسهما بعينيه، وتلمظ، ثم بلل شفتيه، ورفع السعر إلى الضعف.

-هنيئا لك أبا سلمان.

صاح النخاس، ولفهما العبد برداء، قال التيهرتي مزهوا وهو يرى

حسرة على وجوه المحيطين.

-ولا يليق بالجوهر إلا قصر أبي سلمان التيهرتي.

وأشار إلى عبد كان معه، فساق الجاريتين، وانطلق هو مبتعدا مع النخاسيْن، تملأ قهقهاته الفضاء، راحت تتلاشى شيئا فشيئا من بين جلبة نوق وخيل تكاد تقتحم المكان، فانسحبنا عائدين.

ونحن ندخل المكتبة ونغلق بوابتها الكبيرة أخبرنا العميد، أن اليوم هو سوق الجواري، يعقد مرتين في السنة، وتجلب إليه الفتيات من كل أقطار العالم، يتفاوتن في القدرات ويختلفن في الأشكال والألوان والأجناس والألسنة، ورغم أن السوق يبدأ صباحا، غير أن كبار التجار يأتون ليلا لاقتناء ما يناسبهم، يمسكونه في قصورهم، أو يضربون به في مشارق الأرض ومغاربها طلبا للربح.

-احتقرت هذا التاجر الأخرق، كأنما يشتري متاعا، تبا له.

قالت هبة غاضبة، فرد العميد ضاحكا:

-وليس في التجار أمهر وأبرع من أبي سلمان التيهرتي في اقتناص الجواري، حتى أن تجارا أثرياء كمحمد بن حرني ويبيب بن رغلين فشلا أمام عبقريته.

توجهنا مباشرة إلى الغرفة التي كان بها الراهب، دخلنا عليه، وقد تخفف من ملابسه، ورمى قلنسوته، فبدت صلعته لماعة على ضوء قنديل احتضنه الركن، وظهرت لحيته البيضاء تكاد تغطي صدره، كانت الكتب مترامية حوله من كل جهة، تتكدس أحيانا حتى تساويه، وقريبا منه ركن إلى الصمت البارد كأس شاي فقد رغوته ودفأه.

رفع الشيخ فينا عينيه الذابلتين من كثرة التركيز في الكتب، ورد علينا التحية وقد رسمت على وجهه ابتسامة خفيفة، جلسنا قبالته باحترام كبير، وجلس العميد قريبا منه وقال لنا:

-يأتي المعصومة كل عام، ثم يطوف في أرض الله الواسعة بحثا عن الحكمة، يتهجى الحياة، يقرأ في كتبها، لا ينتهي إلى جواب حتى يسفر له عن سؤال جديد، والحياة كما تعلمون سؤال أبدي، ولو لم أسلخ شبابي في هذه المكتبة خدمة للعلم لكنت رفيقه.

حدثنا الشيخ طويلا عن رحلاته في بلاد الأندلس والمغرب واليمن والحجاز والشام بحثا عن الحكمة، وعن آلاف الكتب التي قرأها، كان يؤمن بأن كل ما في الوجود هو كتاب كبير، وعلى المرء أن يقرأ كل شيء مهما بدا له تافها، غير أن كعبة المرء دوما هي قلبه.

كنت أركن إلى الصمت، أتتبع كلمات الشيخ حرفا حرفا، كأنما أقف عند منبع حكمة، قالت هبة، تسأل عن الطائر.

-نريد سعادتنا نحن يا سيدي، أنا وحبيبي نعيش الضياع منذ سنوات، إننا نبحث عن الاطمئنان، عن السعادة.

رفع فيها عينيه، صمت لحظات وقال:

-لابد من رؤية الطائر العجيب.

وهزتنا الدهشة، ونحن نسمع عبارة القطب نفسها، كأنما يغرفان من نبع واحد، يصدران عن مشكاة واحدة، ولبس الشيخ قلنسوته، وغرق في كتبه، أسرع العميد يخرجنا من الغرفة، مؤكدا لنا أنها إشارته حين ينهي المقابلة.

سهرنا تلك الليلة طويلا مع العميد، الذي كان شلالا من حكايا عجيبة، وددت لو كان بإمكاني تقييدها، تحدث عن عجائب نفوسة والقيروان وفاس، وكثير من مدن الأندلس العملاقة وما فيها من خيرات وكنوز، ومن أعاجيب تحير العقول، وروى لنا كثيرا من الشعر، حتى شاعر تيهرت الكبير، وسألت هبة وفي عينيها حيرة:

-هل هو الذي التقيناه اليوم؟

صمت العميد لحظات يتغشاه حزن شديد ثم أجاب:

-إنه بكر بن حماد، وكم هو مؤسف أن تفقد مدينتنا شاعرا كبيرا مثله، رجوته كثيرا أن يبقى لكنه كان زوبعة من الرفض.

وأسرع يسلمنا بعضا من قصائده، كتبها الشاعر بخط يده، واستودعها لدى العميد، ثم قرأ لنا منها في وصف تيهرت.

ما أخشــن البرد وريعـــانه
وأطرف الشمس بتيهـرتِ
تبدو من الغيـم إذا ما بدت
كأنّهـــا تنشـــــر مـــن تختِ
فنحـــن في بحـــر بلا لجّـــة
تجري بنا الريح على السمت
نفرح بالشمس إذا ما بـــدتِ
كفرحـــة الذمّي بالسبـــتِ

7

## البيعة الثانية

امتلأت تيهرت كلها لغطا وهرجا لم تعرفه من قبل، وراح المئات ينسلون من كل أحيائها يتجمعون في الساحة العامة، يكومون أمتعتهم وبهائمهم، حتى أغلقوا على الناس أبواب مسجدها الجامع، واضطر التجار إلى جمع سلعهم خوفا من إتلافها، وانسحبوا يعودون إلى بيوتهم، ولم يكن الأمر أحسن حالا مع "المعصومة"، التي اعتكف طلبتها داخلها بعد أن سد العميد بوابتها بإحكام شديد، ووقف مع بعض روادها الأشداء على سطحها.

ارتفعت بين الحشود لافتات كبيرة كتبت عليها شعارات مناوئة للإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن، قرأت منها سريعا:

تاهرت عاصمتنا، ولن نجاور الظلمة فيها.

الإمامة باطلة بإسقاطها شرط المسلمين,

المؤمنون على شروطهم.

وارتفعت هتافات متزاحمة، لم يكن يصل أسماعنا منها بشكل واضح إلا ترديد الجميع وبحماس شديد: تاهرت، تاهرت، تاهرت، واشتدت حيوية أحد الشباب فاعتلى مكانا مرتفعا يسعى لإسكات الغاضبين، غير أن كل محاولاته انتهت بالفشل، بل إن الجموع قد ازداد هياجها وسخطها، بمجرد أن حضر رجال الشرطة وطوقوا المكان محاولين إجلاء المتجمهرين، واشتبك الجميع في معركة بالأيدي والهراوات انتهت

بهزيمة رجال الشرطة وانسحابهم، مما أشعل لهيب الحماسة أكثر في المتجمهرين فارتفعت صيحاتهم من جديد.

كنت أتابع المشهد من أعلى سطح "المعصومة"، ونفسي تعتصر ألما مما يقع، إن انفلاتا بسيطا قد يحيل المدينة إلى كومة من رماد، فاجأني العميد وهو يجلس إلى جواري، قائلا:

-أدهشك المشهد فلم تفطن إلي.

قلت بحزن:

-أجل، أتصور أن معظمهم من دهماء الناس ورعاعهم.

-إنهم النكار بقيادة يزيد بن فندين، يريدون إلزام الإمام بشروطهم، حتى يكون لهم رأي في كل مسألة.

وعادت الأصوات ترتفع من جديد فيها تهليل وتكبير وفرح غامر، وفتح الجميع بينهم طريقا سلكه ابن فندين حتى وصل مرقى صعده، فسكنت الحركة، وتطلعت العيون، جال ببصره قليلا ثم قال وهو يتكئ على سيفه:

-يا أهل الحق الأبلج، قد جمع الناس أمرهم على نصرة باطلهم، وجمعنا أمرنا على الخروج من مدينة عاثوا فيها فسادا، حتى انحرفوا باسمها من تاهرت إلى تيهرت، وحتى جمعوا الأمر كله في يد من لا نعرف له فضلا علينا، وأنكروا أمر المشورة وهو أساس الملك في قوله تعالى "وشاورهم في الأمر"، وإنا لمنتظرون إخوانا لنا من الشرق ليفصلوا في أمر خلافنا، وإني لآمركم أن تغادروا المدينة جميعا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

وانطلق الجمع ينفض مغادرا المدينة، فلم يتخلف منهم إلا عشرات، هم سادتهم وأعيانهم، يحيطون بزعيمهم في حماس وهو لا يكف يتحدث إليهم ملوحا بيديه، موزعا نظراته في كل اتجاه.

كان المشهد مغريا بالنسبة إلي، تتوق نفسي لتعرف حقيقة الطائفة وأفكارها، وتسللت رفقة العميد نحوهم، كان ابن فندين في قمة غضبه وهو يأخذ العمامة من فوق رأسه ويضرب بها الأرض صائحا.

-لن نسكت حتى نرمي بهم كسقط المتاع، ووالله لن ندخل المدينة حتى يخرجوا منها، بل حتى يعزل الإمام ويعاقب.

وأخطأ أحدهم فتلفظ بتيهرت، فاشتد غضب ابن فندين وخاض مسألة لغوية متشعبة في التفريق بين الألف والياء، وأيهما أصلح وأهم، أنهاها بقوله:

-إن سادتنا الأول رفعوا من قدرها لرفعة أقدارهم، فمدوا تاءها إلى الأعلى، فلما خلف من بعدهم خلف جروها حقيرة ذليلة، لحقارتهم وذلتهم، ولن نسكت حتى نرفع قدرها مرة ثانية.

وأقبل رجال الشرطة من جديد مدججين بالسيوف، وسريعا استل أتباع ابن فندين سيوفهم وشكلوا صفين كبيرين لحماية زعيمهم.

وقف الفريقان متقابلين وقد توجس كل منهما من الآخر، وصاح ابن فندين من خلف الصفوف

-قاتلوا أعداء الله ورسوله.

ورد عليه رئيس الشرطة:

-قاتلك الله يا رأس الفتنة، ومتى عرفت الله ورسوله؟

وأسرع العميد يقف بينهما، رافعا يديه، صائحا في الجميع.

-"إنما المؤمنون إخوة" "ومن قتل نفسا بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعا"

ولكنهما التحما، فاشتد الصياح بينهما، وامتلأ الجو غبارا، فأسرعت أجر العميد بعيدا نلج "المعصومة"، وهبة تصيح فينا كالمفجوعة.

-انسحبا إنها الفتنة، انسحبا.

غير أن الأمر لم يطل وصائح يهز الساحة.

-أبشروا لقد أقبل شعيب المصري، أبشروا لقد أقبل شعيب المصري.

وأوقف الجميع القتال دفعة واحدة، وانسحب الفريقان إلى موقعيهما، وسريعا نظم قائد الشرطة صفوف رجاله وغادر المكان، في حين راح ابن فندين يصيح:

-جاء النصر من مصر، جاء النصر من مصر.

وارتسم غضب شديد على ملامح العميد وهو يعلق على ما سمع.

-يرفضان الفتوى حتى تأتيهما من المشرق.

وأمر الصراع يعود للأيام الأولى لمبايعة الإمام عبد الوهاب، حين اشترطت طائفة على أن لا يقطع أمرا حتى يعود إليهم، فقبله في البداية إخمادا للفتنة، ثم رفضه إخمادا لفتنة أشد، وتمسك مناوئوه بالأمر، فلم تقنعهم كل الفتاوى، حتى أرسلوا بوفدين أحدهما إلى مصر والثاني إلى الحجاز.

وصل شعيب المصري تيهرت فجرا، وتوجه مباشرة مع رفاقه إلى مقر الإمام، حيث حظوا باستقبال العلماء الأجلاء، وسمح لهم بأخذ قسط من راحة، لم تدم طويلا، كان شعيب المصري يكرر في كل لحظة:

-ما ضربنا الأرض وطوينا الفلاة إلا حبا لله ورسوله، ونصرة للفرقة الناجية بإذنه تعالى.

ولم يطل اللقاء العملي الذي جمعهما، كانت حجة الإمام عبد الوهاب قوية، ولم يملك شعيب ورفاقه إلا أن أقروها، وسريعا خرجوا لملاقاة البغاة لردهم عن غيهم.

أمر ابن فندين أتباعه بفرش بسط تحت شجرة وارفة، وإحضار طعام وشراب للمجلس، واختار من رفاقه أربعة ووزع البقية على كل محيط الساحة للحراسة.

وصل شعيب مع رفاقه، فهب الجميع يلقونهم بالعناق، وما كاد الرجل يطمئن في مجلسه حتى اندفع ابن فندين يقول كالباكي:

-والله يا سيدنا لو كنت الإمام لقدمنا بين يديك الروح والأهل، ولأنت أهل لها حقا.

ورفع شعيب رأسه وقد ارتسمت على محياه ابتسامة رضى، ولم يزد على أن جرع لبنا من إناء فخاري، واستمر يحدق في ابن فندين، يحثه على مواصلة الكلام.

وتناوب كل من في المجلس الحديث، يقدحون في الإمام عبد الوهاب بقلة علمه وضعف تجربته، ويمدحون الضيف بسعة معرفته، وورعه وعمق خبرته.

واشتد استغفار شعيب المصري مطأطئا رأسه، فسكت كل من في المجلس، وحين أنس منهم ذلك قال:

-أيها الإخوان، إن شرع الله لا شية فيه ولا لبس، وحجة الإمام قوية، وليس لكم أن تشترطوا عليه، فالإمامة لا تبطل إلا بحدث في الإمام بعد الأعذار والإنذار، وتمادي المُحْدِث على الإصرار والاستكبار، فحينئذ يجب القيام عليه، وإبطال ما صار من أمر المسلمين إليه.

غير أن ابن فندين نشط من مكانه صائحا.

-بايعناك أيها الإمام على السمع والطاعة.

وما كادت كلماته تصل أسماع الأتباع حتى تهافتوا على المجلس يبايعون الإمام الجديد، الذي نشط قائما يتلقى بيعتهم، وسريعا حملوه على الأكتاف وانصرفوا.

قالت هبة وهي تقف.

-عجيب إنه سحر الزعامة.

قمت إلى جوارها وأنا أتأمل منظر غروب الشمس، وقلت:

-إنه إغراء السلطة الذي لا يقاوم.

بقي العميد حيث هو يجمع إليه كل أحزان الدنيا، وقال:

-إنها الفتنة.

لم يطل الوقت حتى امتلأت الساحة بالناس، يتصيدون الأخبار، ويعلنون عن استيائهم الكبير مما فعله النكار حين شقوا عصى الطاعة.

ولكنهم سرعان ما هرعوا إلى المسجد لصلاة المغرب، التي استغلها الإمام عبد الوهاب، ليلقي في الناس خطبة حماسية، كشف فيها ضلالة النكار، وخروجهم عن طريق الحق، واصفا إياهم بأنهم نكاث، ومتهما شعيب المصري بالطمع في الإمارة، حاثا الجميع على الدفاع عن دولتهم، دولة الحق التي سقاها آباؤهم وأجدادهم بدمائهم وأرواحهم، مستشهدا من القرآن بالآية "فإن بغت إحداهما عن الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله".

ولقيت خطبة الإمام تجاوبا كبيرا، فغص المسجد والساحة، وامتلأ المكان كله بصيحات التكبير استعدادا لقتال الفئة الباغية.

## 8

## مغارة الدم

أرسل الفجر خيوطه الأولى باهتة عليلة، يندبُ حالَها بعضُ حمامات هدِلَت على غير العادة، كنا منذ السحَر على أهبة الاستعداد لمغادرة المدينة، وأحس الشيخ الراهب بذلك فأصر على مرافقتنا، كان يقصد واحة تبعد أميالا عن تيهرت، ودعنا العميد بعد أن زودنا بمؤونة، وأهدانا حصانا عربيا أصيلا، امتطى الشيخ صهوته، ومعه حمولته التي لم تكن إلا كتبا، تجنبنا الوهاد حيث كان يعسكر النكار بإمامهم الجديد، ثم اتجهنا شرقا، كانت هبة تتحرك أمامنا برشاقة، رغم حقيبة الظهر الثقيلة التي امتطت ظهرها، في حين كنت أشد اللجام.

لم يكف الشيخ لحظة عن الصلاة، كانت صهوة الحصان بالنسبة إليه محرابا، ولم أكف عن إعادة تصفح شريط ما مر بنا، ظلت صورة الشيخ القطب تلح على الحضور بوضوح وهو يوصينا بالبحث عن الطائر العجيب، وحده هذا الطائر من يريكما طريق السعادة، وتذكرت دهشتي أنا وهبة حين انطلق الشيخ القطب فوق حصانه الذي حلق في الجو بجناحين غريبين، نظرت خلفي لأتأكد من أن الشيخ الراهب لم يبرح مكانه، خشيت أن يطير هو أيضا، غير أنه كان يقلب بصره في السماء داعيا، كانت هبة تندفع باتجاه الغابة لا تكاد تلتفت إلينا، رغم أننا لم نألف هذا الطريق، وهي عادتها حين ترتمي في أحضان الطبيعة، تصير كالفراشة تنفتح على كل ما هو جميل.

بدأنا نخوض لجة الغابة، وصار سيرنا أبطأ، لم تكن تسمح لنا كثافة الأشجار بالانطلاق بقوة، وصرنا الآن أشد حذرا، قد يباغتنا خطر ما في أية لحظة، شوكة النكارية بقيادة يزيد بن فندين لم تكسر بعد، رغم الهزيمة النكراء التي تلقوها، حتى جرت دماؤهم عند باب المدينة كالسيل، وسهام عشرات الجماعات والفرق المتصارعة،ظاهرية كالعباسيين والأدارسة والأغالبة، وباطنية كالشيعة، تتعطش كلها إلى الدماء في كل واد، وزاد الأمر سوء دخول الإمام في حرب شرسة مع قبيلة هوارة حين تزوج إحدى عشيقات فتى منهم، وإن أخطأتك سهام كل هذه الجماعات والعصابات فلن يخطئك حيوان مفترس في هذه الغابة العملاقة، التي كثرت فيها السباع.

جمدت هبة مكانها تدقق السمع، وجفل الحصان، فرفع رأسه ونصب أذنيه، رحت أرسل بصري في كل اتجاه، أنقله سريعا من مكان إلى آخر، أنتظر أي هجوم مباغت، وتناهى إلى أسماعنا من بعيد زئير أسد يرعب حتى أفنان الأشجار، رجعت هبة أدراجها سريعا متعثرة الخطو، أسرعت إليها، وعدت إلى الحصان وقد راح يصدر حمحمة خوف وتوجس، ثم اضطرب مكانه كأنما يسعى للفرار بنفسه،لكن الشيخ ظل هادئا مطمئنا يواصل صلواته، غير آبه بما يقع، تخيرت هبة عصا مما تساقط من أغصان الأشجار، متوهمة أنها تحميها من أسد جائع مفترس، وندمت أني لم أحمل معي سلاحا، ماهذا الغباء الذي سمح لنا بالمسير في خلاء موحش دون سلاح؟ كان الزئير قد اقترب بثقة كبيرة منا، كنت أفكر في تسلق شجرة سامقة، أعين هبة على صعودها ثم ألحق بها، ليس هناك حل غير ذلك، لا معنى للهروب، ولا معنى للمقاومة بعصا بائسة، والشيخ ما نفعل به؟ كيف ننقذه الآن؟سيكون لقمة سائغة للأسد الجوعان، هل نفرط فيه؟ بل سيصعد معنا الشجرة،

وسخرت من نفسي، كيف لهذا العاجز أن يفعل، سنتعاون، أدفعه أنا من الأسفل وتسحبه هبة من الأعلى، وأسرعت إلى الشيخ أهم بإنزاله وقد بدا علي اضطراب شديد، أحس الشيخ بما أنا فيه، جمع تلابيب ثيابه، ومد يده إلي فترجل، اشتدت حمحمة الحصان خائفا، أسرعت إلى هبة، امتقع لونها وزاد اتساع عينيها، دفعتها إلى الشجرة، لم يكن صعودها سهلا رغم فتوة هبة وطولها، حين استدرت إلى الشيخ كان الأسد قد وصل إلينا، بدت عيناه شواظا من نار، وقد أعد مخالبه وأنيابه، لن أفلح في إصعاد الشيخ، ولا في صعودي أنا، اشتد صراخ هبة خوفا علي، هممت بالهروب، أمسك الشيخ بي يعيدني، بدا أكثر قوة من شيخوخته، وقفت خلفه، وصل الأسد إلينا، كان مباشرة في مواجهة الشيخ، اندفع إليه بقوة، أمسكت به دون وعي مني أبعده وأنا أقبض على العصا، تخيلت نفسي والشيخ قطعا من لحم وعظام متناثرة هنا وهناك، أغلقت عيني، وقد اشتد صراخ هبة.

صار زئير الأسد أخفت بكثير، فتحت عيني، كان الشيخ يقف ثابتا، وكان الأسد يقعو هادئا يمد لسانه خارج فمه وقد تسربل وداعة، غشينا الصمت المطبق وقد فتحت عيني إلى آخرهما، لقد أشربت دهشة، فركت عيني، مططت أذني عليّ أفطن من هذا الحلم العجيب، أشار الشيخ بيده إلى الأسد فرجع القهقرى خطوات، ثم استدار وغاب بين الأشجار الكثيفة.

قال الشيخ وهو يلتفت إلي:

-لنواصل المسير.

أسرعت أعينه على امتطاء الحصان، وأنا أقبل أطرافه، شددت اللجام وخطوت، صاحت هبة تعيدني، وهي تحاول النزول من فوق الشجرة، أمسكت بها، قبل أن تثبّت قدميها على الأرض ارتمت في

حضني وقد أجهشت بالبكاء، رحت أضمها إلى أعماق حضني وقد ضيعت كل قواميسي، وحدها لغة القلب ظلت تنشد إيقاعها، همحم الحصان كأنما يستعجلنا، مسحت بأصابعي دموع هبة، قبلتها على جبينها الناصع البياض، وقدتها من يدها، وانطلقنا، نمسك بلجام الحصان سوية، حتى يحتك كتفانا، وظل الصمت يجللنا، يدق قلبانا على وقع سنابك الحصان، وتصل مسامعنا بين حين وآخر تغريدة عصفور، أو انسحاب حيوان بعيدا داخل الغابة متجنبا لقاءنا، كنا الآن أكثر ثقة بأنفسنا، لا معنى الآن لأي خطر.

خرجنا من الغابة، وتراءت لنا الواحة غير بعيد، تنفست الصعداء وأنا أتمتم: الحمد لله، كانت الشمس تسير الخيلاء باتجاه قلب السماء الصافية، وقد هبت نسائم عذاب تحمل إلينا عبق الطبيعة المنعشة، وما فتئ سيرنا أن أخذ منحدرا جيريا صلبا، مما دفعنا إلى التعرج ذات اليمين وذات الشمال، كنت أشد هبة بذراعي، وأتلفت إلى الشيخ خشية أن يهوي، وأخيرا انبسطت الأرض وعلى بعد عشرات الأمتار كانت تمتد الواحة العملاقة، تبدأ نخيلات خضراء يانعة، وتتدرج أخرى في الارتفاع، حتى تشعر أنك في سفح جبل ترنو إلى قمته، ومن خلال ثلم عمودي في صخرة مستديرة انفجر ينبوع يملأ حوضا كبيرا ماء عذبا فراتا، يدندن بإيقاعات عذبة، كأنما يدعو الجميع إليه، ينساب في ساقية لينضم إلى مياه الوادي المبلط بالحجارة الملساء،أطلقت عنان الحصان وقد اندفع يطلب ماء، أعنت الشيخ على النزول، كنا جميعا في حاجة إلى أن نرتوي ونغتسل ونستريح.

قال الشيخ وقد راح يغسل يديه:

-يمكن أن تتركاني هاهنا، لقد صار معبدي قريبا، يسهل أن أرتقي إليه سيرا، شكر الرب مسعاكما، وأدام محبتكما، أدعو لكما دوما.

أكملت الاغتسال مع هبة، وتمددت بجانبها، كانت ترنو إلى السماء وكنت أرنو إلى صفحة وجهها، أحاول أن أتهجى عبقرية جماله، رددت في نفسي، ماذا لو رآها ليوناردو، حتما سيخجل من تصويرها، رغم كل شيء كان في ملامحها انبساط ورضى، أعدت إلى ذاكرتي ما تعودت أن تقوله لي: مادمت معي لا يعنيني ما يقع، التفتت إلي وابتسمت، مددت يدي أداعب أصابعها البضة الطويلة، تناهى إلى مسامعنا تغريد عصفور يطوي السماء، كانت تغريدة فرح، انتبهت هبة تبحث عنه وقالت:

-ربما هو.

نقلت طرفي بين الفضاء والشيخ، كأنما أود أن أسأله عنه، لم يحرك الشيخ رأسه البتة، كان غارقا في أغراضه يعيد ترتيبها، أعدت النظر إلى الفضاء، كان الطائر قد اقترب وحط قريبا منا، دنونا منه، كان رائعا مدهشا، ولكنه لم يكن بما وصف لنا، أقبلت أنثاه من بعيد، شربا ماء وغرقا في حفل غزلي بهيج، ولم نملك إلا أن نجلس نتابع المشهد.

أسرعنا نقوم وقد صك أسماعنا وقع سنابك خيل، وجلبة رجال من بين أشجار الواحة، غطت هبة وجهها تماما ووقفت خلفي، أطل سبعة من الفرسان بكامل عدتهم الحربية، وهم في حالة انبساط تام، قالت هبة بصوت خافت:

-إنهم يقصدوننا.

-لعلهم يريدون نبع الماء.

قفز اثنان منهم إلى الأرض بخفة كبيرة، اقتربا منا، ألقى أحدهما السلام، تمتمتُ:

-وعليكم السلام.

واصل بسخرية:

-فريسة ثمينة، كنا ننتظركم مذ خرجتم من مكتبة "المعصومة".

اندهشت لما يقول، وسألت:

-ما تريدون منا، نحن أبرياء.

قال الثاني وهو يرد طرفي برنسه على ظهره:

- نعرف ذلك، لقد نذرنا أنفسنا للحق، ولن نهدأ حتى نسقط من يزعم أنه إمام، لن نهدأ حتى نجتث الوهابية اللعينة، ونقضي على رأسها وكل أتباعها.

أردت أن أقاطعه قائلا: وما دخلنا نحن، لكن صاحبه الأسمر اللون، أسرع يقول:

-سنحتجزكم رهائن، إما أن يفاوض زعيمنا يزيد بن فندين أو..

وقاطعه زميله الأشقر ضاحكا.

-نقطع رؤوسكم، كما قطعنا رأس ابن الإمام ميمون المدلل، ونكلنا بجثته العفنة.

ظلت هبة تتطلع إلى الشيخ، كأنما تنتظر منه معجزة ما، ولكنه لم يكن يأبه بكل ما يدور حوله، كأنما لم يحس بكل الذي يقع، وصاح قائدهم:

-جروهم ليس لنا متسع من الوقت.

دفعنا أحدهم أمامه، وأسرع الثاني يجمع ما تناثر من أمتعتنا ويضعها فوق الحصان، ثم أسرع يجره، وانطلقوا يقطعون بنا طريقا طويلا متعرجا ضيقا داخل الواحة، واجهتنا في نهايته صخور عملاقة، ما كدنا ندرج من بينها حتى وجدنا أنفسنا ندخل مغارة عند سفح جبل شاهق.

كانت الساحة تنبسط أمام المغارة بتربتها البيضاء تحتضن صخورا نتأت هنا وهناك، تتصل بمنحدر يعانق واديا يشق جبلين، يلامس الواحة قليلا ثم يختفي بين جبلين آخرين، لاحظت قائدهم يشير إليهم أن يهدؤوا، سكت الجميع، وسكنت الخيول، قرأت على ملامحهم توجسا من خطر ما، ترجلوا الواحد بعد الثاني، وراحوا يقتربون من

مدخل المغارة غير آبهين بنا، تنحني هاماتهم حتى تكاد تلاصق الأرض، وهوى أحدهم من فوق صخرة سامقة تعلو المغارة وقد رددت الفجاج صيحته، وسقط ثان وثالث، لبدنا نلتصق بالأرض خلف صخور صغيرة، ظلت هبة تلتصق بي وهي تدس رأسها بين ركبتيها، وظللت أمد بصري بين حين وآخر أتابع المشهد، وظل الشيخ مطمئن البال هادئا في مكانه.

اقتحمت كوكبة من الفرسان المكان،كأنما نزلوا من السماء، يحاصرون النُكَّار، الذين لم يجدوا مناصا من الاستسلام، وأسرع أحدهم إلينا يدفع بنا في قسوة شديدة داخل المغارة، وهم يهتفون بصوت واحد حتى تردد الفجاج صداه: ونشهد أن عليا وليّ الله.

وتكومنا في الداخل، أنا وهبة والشيخ في ناحية، نجلس صامتين، تلجم الدهشة ألسنتنا، ومجموعة من مقاتلي النكار لعلهم عشرة أو أحد عشر، يجلس بعضهم صامتا، ويتمدد بعضهم يئن، كان الخوف باديا على كثير منهم، وقد هزتهم المفاجأة، وقف أحد المهاجمين، وكان طويلا نحيلا، وألقى فينا خطبة طويلة في فضائل علي وأبنائه وآل بيت رسول الله، وأورد عشرات الأحاديث تلعن من يعاديهم، وتهدد من يتخلف عن نصرتهم، موجها كلامه دوما إلى الفرسان غير مبال بنا، ثم ختم كلامه بقوله:

-وما قطعنا البوادي والقفار، والجبال والأنهار، إلا لنقيم دولة الفرقة الناجية، والعصبة الظاهرة الباقية، وإنا لسعداء أن تسفك دماءنا وتقطع رؤوسنا، لنلحق بسيدنا أبي عبد الله الحسين عليه السلام، في جنات عرضها كعرض السماوات والأرض.

وسكت وقد سمع في الخارج ارتطام صخور، فهرع بعض من كان معه يستطلع الأمر، ثم واصل موجها كلامه إلى قائد المجموعة يزيد بن

فندين، الذي انتحل اسما آخر.

-ندعوكم اللحظة إلى التوبة، يا أتباع عدو الله الفاسق الزنديق، عبد الرحمن بن ملجم عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

وقاطعه أحد الحاضرين وقد كان مصابا.

-لا تجوز اللعنة إلا على الشيطان، أما عبد الرحمن بن ملجم فكان عابدا تقيا، حافظا لكتاب الله تعالى، صواما قواما، باع نفسه ابتغاء مرضاة الله تعالى، ويكفي أنه كان أقرب الخلق لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولم يقتل عليا إلا متأولا مجتهدا مقدرا أنه على صواب.

ووصله سهم خرق صدره فخر صريعا، وهو يردد:

-اللهم عليها نحيا وعليها نموت، وفي سبيلها نجاهد وعليها نلقى الله.

وثار بعض من أصحابه معه، وهم يصيحون بصوت واحد:

-نحن الشراة لا كذب، نحن لها حين الكرب.

فتمت إبادتهم سريعا، واستسلم البقية، وقائدهم يقول:

-يا إخواننا إنما نحن وأنتم على كلمة سواء، هو قتل الضالين المضلين من الوهابيين الملاعين، فلنقم معا، ولنتعاهد على إقامة الحق الذي جاء به سيد الخلق محمد بن عبد الله، وستجدون منا ومن أتباعنا وهم كثرة الدعم والمدد.

قاطعه أحد المهاجمين وهو يقف عن شمال قائدهم.

-على أن نكون نحن المهاجرين وأنتم الأنصار.

وحدق فيهم يقلب طرفه في كل اتجاه، ثم واصل كلامه.

-ولكم أن تنزلوا عند دعوة أئمتنا المهديين عليهم السلام، ولكم أن لا تفعلوا، المهم أن تكون سيوفكم على أعدائهم لا عليهم.

وسريعا صارت عداوتهم محبة، فتعاهدوا وتعانقوا، ونشطوا يخرجون الموتى من المغارة ويجهزونهم للدفن، غير أن خلافا كبيرا وقع بين

الطرفين، زعم أصحابهم أنهم شهداء يدفنون دون غسل، وزعم الآخرون أنهم لم يرتقوا إلى مكانة الشهداء، ونشبت معركة جديدة، سقط فيها مقاتل آخر من النكار، ومافتئ القتال أن توقف، واستسلم الباقون من جديد، وزعيمهم يصيح فيهم.

-إنما الأعمال بالنيات، وإنما يبعث أصحابنا على نياتهم.

حمل الموتى إلى مكان بعيد، وتكفل بعض أصحابهم بدفنهم، دون أن ندري أغسلوا أم لا، قام بعض فرسان الشيعة بالحراسة متفرقين حول المغارة، في حين دخل زعيمهم برفقة اثنين منهم، يظهر أنهما حارساه، على ملامحهما شدة وصرامة، ثم لحق بهم رابع، جلس إلى جوار الزعيم، كأنما هو مستشاره أو نائبه، قضى الزعيم معنا زمنا طويلا يسألنا عن كل صغيرة وكبيرة، وظهر الارتياح على محياه حين تأكد أننا لا ننتمي إلى أي فرقة ممن تناصبهم العداء، سلمنا مجموعة من الكتب تهدينا إلى سواء السبيل لنكون من الفرقة الناجية يوم القيامة حين لا ينفع مال ولا بنون، وانصرف عنا.

مرت الساعات الأولى من الليل علينا ثقيلة كئيبة، لم ينفع ما افترشناه لدفع برد أرضية المغارة، كنت أحتضن هبة كطفل صغير، قد تنفع حرارة جسمينا في تدفئتنا، بينما كان الشيخ جالسا يصلي غير آبه بكل ما يدور حواليه، وانسحب بقية الفرسان إلى الخارج، ينام الزعيم ونائبه عند مدخل المغارة وقد ارتفع شخيرهما، وقريبا منهما ينام غيرهما، في حين بات آخرون مستيقظين على أهبة الاستعداد لأي مفاجأة، أما فرسان النكار المستسلمون فقد جردوا من أسلحتهم ووضعوا في المنتصف مكبلين.

انقلبت هبة على جنبها الأيمن وهمست في أذني.

-أحس أن أجلنا قريب جدا.

دغدغت أصابعي شعرها الطويل مطمئنا، هي ذي هبة كلما داخلها الخوف تخيلت خطرا قريبا، كأنما تملك حاسة عاشرة، واصلت كلامها حين لم أجبها.

-ما رأيك؟

-لا أحس بشيء، أنا لا أتكهن بالمستقبل، غير أني متفائل، ليست هذه أول مرة ننجو فيها، حياتنا كلها خطر.

واستدرت مبتعدا عنها، وقد أحسست بوقع أقدام تقترب الهوينا، وصل إلينا أحد الحراس يدعونا بهمس أن نصمت، حتى لا نوقظ الزعيم، وتمتمت هبة تلعنه، وأدرك مقصدها، فأسرع إليها يغرز سيفه في الأرض قرب رأسها، متمتما:

- ناقصة عقل ودين.

وسحبه رفيقه بعيدا، أسندنا ظهرينا إلى جدار المغارة، والتصقنا كتفا لكتف، أمسكت يد هبة بين يديّ حمامة في عشها الدافئ، مازال الشيخ في مكانه لا يبرحه ولا يغير جلسته، لا هم له إلا الصلاة، لا يأبه بكل الذي يجري حوله، تخيلته وحده مصباحا يشع طهرا وحبا، في بحر من الدم الأسود البغيض، بدأت أشعة الفجر تلوح باحتشام، وغلق الكون كل حنجره، فساد الصمت في كل مكان، وغشي العيون نعاس قاهر، غير أن هديرا تسلل فجأة من اتجاه الواديين كأنما هو اندفاع السيل العرمرم، وتهاطل من فوق رؤوسنا، كأنما الرعب يصب جام غضبه فوق الجبل، وهرع الجميع إلى سيوفهم يمتشقونها، غير أن الأمر كان قد فات، وأسقط في أيديهم، وقفت مع هبة عند مدخل المغارة نتابع المشهد، صاح الزعيم:

-الخوارج يحاصروننا.

ووصل صوت قائد جند الرستميين الذي تعرفنا عليه بيسر،

متهددا متوعدا.

-"إنّما جزاءُ الّذِين يُحارِبُون اللّه ورسُولهُ ويسْعوْن فِي الأرْضِ فساداً أن يُقتّلُوَا أوْ يُصلّبُوا أوْ تُقطّع أيْدِيهِمْ وأرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أوْ يُنفَوْا مِن الأرْضِ ذلِك لهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا ولهُمْ فِي الآخِرةِ عذابٌ عظِيمٌ".

وصاح فيه الزعيم مقاطعا:

-ياعدو الله وعدو رسوله، أيها الخارجي النجس ومتى عرفت أنت وأسيادك حدود الله، ودم ولي الله في رقابكم إلى يوم القيامة.

-قد تلوت عليكم حكم الله، ولن ينجيكم إلا الاستسلام قبل أن نقدر عليكم.

رد القائد، فصاح الزعيم وكل من معه بصوت واحد حتى ارتج الوادي كله.

-هيهات منا الذلة، هيهات منا الذلة.

ثم رفعوا سيوفهم إلى الأعلى مرددين.

-واكربلاء، واكربلاء، سنمضي برغم الموت برغم البلاء.

فصاح فيهم الفرسان المهاجمون:

-وانهروان، وانهروان، هيهات الذلة، هيهات الهوان.

والتقى الفريقان في معركة طاحنة، لم تشرق الشمس إلا على لوحة رسمت بالقاني على الأرض البيضاء المنبسطة أمام المغارة، وعلى صخور الوادي والجبل، وقفنا نتأملها من بعيد خلف صخور انتصبت في عناد على قمة الجبل المقابل، أما الشيخ فكان يعود أدراجه مطمئنا إلى معبده وسط الواحة.

9

## تداول على السلطة

استوينا أخيرا على ربوة عبقت بكل لون عبق، وداعبتنا نسائم البحر، فتحت هبة ذراعيها كأنما تهم أن تمتلئ نسيما، كانت مبتسمة منتعشة كما الربيع، ممتدة كزنبقة، أشرب خداها حمرة فغدا وجهها كبدر بهي، نسيت الطبيعة واستلقيت أتابع حركاتها البريئة كأنما هي طفلة لا تريد أن تكبر أبدا، كنت منتشيا مبتسما، وأنا أعيد إلى ذاكرتي لقاءاتنا الحميمة التي لا تنسى، في الحقول، والشواطئ، وتحركت هبة بحذر كأنما تتربص بشيء ما، كانت ساقاها تتعانقان كأنما هي في حفل معرض للأزياء، وقد جمعت ذراعيها، وحدقت بعيدا، كانت تتابع حجلة تتحرك بحذر، تدور في المكان كأنما تبحث عن شيء ضيعته، لفت انتباهي مشية الحجلة، لا فرق بينهما غير أن إحداهما من بني البشر والأخرى من بني الطيور، وطارت الحجلة محلقة مزهوة بجمال ريشها، حركت هبة ذراعيها كأنما تهم أن تطير، ثم صفعت كفيها وقالت:

-ليتني أمسكتها.

ثم ضحكت وهي تتمدد أمامي، قائلة:

-حلمي أن أقبلها على رأسها، أن أمسد بلطف ريشها، ثم أطلق سراحها.

استويت جالسا، كان النهار قد بدأ ينتصف، وبدأت حرارة الجو ترتفع تغري بالنوم في حضن الربيع الساحر، قمت، مازال الطريق

أمامنا طويلا لبلوغ البيت، لم يكن يدور في خلدي الآن إلا أن أدخل حضن سريري وأنام، بل وأعتكف كما تعودت لألتهم عشرات الكتب التي برمجت قراءتها ولم أفعل، تأملت هبة، بقيت كما هي تستلقي على العشب الطري، مغمضة العينين، تفتح ذراعيها إلى آخرهما، أسرعت أجمع أغراضنا، أحست هبة بي، فتحت عينيها قليلا، ثم أسبلت أجفانها من جديد، كانت عيناها رائعتين، يقينا أن الشمس قد غارت منهما، توقفت لحظات أتأملها وأنا أتذكر قول المتنبي: ولكن من يبصر جفونك يعشق.

اقتربت منها، مددت يدي إليها، أستنهضها، أبت، وهي تقول:

-لا أريد العودة إلى المدينة، فلنقم بيتنا هنا.

جلت بنظري، المكان يغري بالبقاء حقا، وما تناثر من الحجارة ييسر إقامة البيت، حتى أنا كرهت هذه الصراعات الغبية، أمسكتها من يدها، وجذبتها:

-فكرة رائعة، سنعود قريبا لتجسيدها.

استوت جالسة للحظات ثم عادت لاستلقائها قائلة.

-تأبى الطبيعة أن تطلق أسري.

رفعت كفي مناديا وقد ارتسمت على ملامحي ابتسامة خفيفة.

-أيتها الطبيعة العذراء، أيتها الطبيعة المترعة بالفتنة والبهاء، يا ذات القلب الجميل المحب، أسألك بمبدعك أن تطلقي سراح حبيبتي.

وانتفضت هبة واقفة، كأنما هي جندي يؤدي واجب الطاعة، متسائلة:

-أتدري لم وقفت؟

وواصلت تجيب.

-لقد أثرت غيرتي وأنت تتغزل بالطبيعة، وخشيت أن تقع هي في حبك فتنساني.

وغرقنا في الضحك.

انطلقنا في طريقنا، كانت هبة ترسم لي شكل البيت الذي تسعى لُإقامته في حضن الطبيعة، وتصور لي حياتها التي تحلم بها بعيدا عن صراع الجميع، حياة بساطة ولكنها حياة كفاح أيضا، وحياة محبة وإخلاص، ولم أكن أجيب، لكني كنت أحلق معها فيما تحلم.

لم يمض بنا الوقت إلا قليلا حتى حلقت فوق رؤوسنا طائرات هليكوبتر، ترتفع ثم تنزل حتى تكاد تلامس سقف السيارة، لعلها كانت ثلاثا أو أربعا لم أعرف على وجه الدقة، ظللت مضطربا مشتتا بين أن أراقب حركة الطائرات، أو أن أراقب الطريق، كنت أنتظر أن تصلنا زخات من رصاص، تخرق سقف السيارة، وتمزق جسدينا، كنت أفكر في أن ألجأ بها إلى أي مكان من مرتفع أو منخفض يحقق حمايتنا، وظلت هبة قلقة خائفة، تنظر من خلال الزجاج إلى الطائرات صاعدة نازلة، وتدس رأسها بين ذراعيها صائحة كلما كادت ترتطم بنا إحداها، ثم راح الدوي يبتعد عنا، قلت محاولا أن أتماسك أكثر:

-هذه الطائرات القديمة لا ثقة فيها ولا في طياريها.

لم ترد هبة، وراحت تُعد جلبابها الأسود، ثم قالت بغضب:

-عدنا إلى زمن الحريم.

وأسرعت تدخل العتمة فلا يرى منها شيء.

راحت المروحيات تبتعد عنا، علقت وأنا أتابعها ترتفع أكثر في الفضاء:

-كيف أفتى الشيخ لأبي علي محمد البوني، بجواز إخراج طائراته التي علاها الصدأ؟

جنحت الشمس للمغيب، وعاد السكون إلى الطبيعة فسكتنا، سلكنا طريقا هامشيا ضيقا مؤديا إلى العاصمة، كنا على يقين من أن الطرق الكبيرة مراقبة، تتعدد فيها حواجز الجيش والشرطة،

كثرت أمامنا المطبات،وكانت السيارة تهتز وهي تمخر أرضية الطريق التي غدت أشبه بحرث.

بدأ المغرب يسدل غلاله الرقيقة، وكثرت الكلاب تطاردنا تحاول أن تنهش العجلات، وراحت الطريق تضيق وقد كثرت حولها الأشجار، سألت هبة وهي تتشبث بالكرسي.

-هل أنت متأكد من أننا لم نضل الطريق؟

لم تكن لدي فرصة للرد، كان كل تركيزي على مقود السيارة، وعلى الطريق التي تغيرت تماما، كانت سلسة ونحن نقطعها ذهابا وإيابا في رحلاتنا السياحية، لعل السيول هي التي قد عاثت فيها فسادا، غير أن كل شيء سيهون، ما دمنا سنصل قريبا إلى البيت.

ووصل سمعي صوت انفجار عنيف هز السيارة، صاحت هبة مرعوبة، صرخت أضرب بيدي على المقود غاضبا لاعنا، أخرست صوت المحرك وترجلت، لحقت بي هبة وقد كانت محبطة جدا، التقينا عند العجلة المنفجرة نتأملها بقلق، سألت هبة:

-ما دهى هذه اللعينة؟ هل هذا وقت العطب؟

لم أجد جوابا، أصبت بالخيبة، ولا حل لنا إلا أن نواصل الطريق مشيا.

من بين الأشجار خرج ثلاثة مسلحين، حاصرونا مشهرين رشاشاتهم الصغيرة، كي لا نفكر في أي مقاومة، رفعنا أيدينا تجنبا لأي حماقة، دفعونا أمامهم وسط بساتين برتقال، وقد امتص المغرب من الكون كل نور، ليكفنه بالظلام، اتجهوا بنا إلى بناية غير مكتملة، تتراكم أمامها قطع الآجر والقرميد، وأكوام الرمل والحصا، عند مدخلها كان ينتشر عشرات الحراس بأسلحتهم الخفيفة والثقيلة، استقبلنا شخص طويل عريض، يتمنطق بحزام رصاص، ويعلق على كتفه رشاشه، وقد علت رأسه عمامة سوداء، دفعنا أمامه إلى داخل

البيت، في آخر الرواق ولجنا قاعة فسيحة ذات باب واسع، لم يفتح منه إلا جزء صغير، وارتسمت الدهشة على وجهينا ونحن نرى أبا علي محمد بن عبد السميع بن السبط بن علي البوني، يجلس على كرسي قديم، يلبس قشابية درعاء، ويعتمر عمامة سوداء، وقد استوى رشاشه على طاولة أمامه، بينما استقر سيف في حضنه، يحيط به جمع من أنصاره يقف بعضهم ويجلس آخرون، أحدهم كان أبا البنين المتيجي، رئيس المجموعة التي اختطفتنا في الحاجز الأول، بدا أبو علي محمد بن عبد السميع البوني، منكسر الخاطر، متعب الملامح، كأنما لم ينم أياما وليالي، دعانا إلى الجلوس قبالته، جلسنا وعلى وجهينا حيرة وأسئلة حارقة، أحسب ذلك فقال:

-سبحان مقلب القلوب.

أدركت أن تغييرا وقع في الإمارة، أقصى من كان على رأسها، وجاء بحكام جدد، واصل أبو علي البوني بهدوء:

-استغل المارق بن المارق بن الزانية خيانة بعض رجالنا، واستولى على قصر الإمارة بحد السيف.

وفجأة ارتفع صوته مواصلا بغضب:

-وتعجبوا يزحزح القرشي سبط رسول الله، ويستولي على الحكم وهو لقيط لا نعرف له أصلا، ضاربا عرض الحائط بقول سيد الخلق: "الأئمة من قريش"، لن يغمض لنا جفن حتى نسترد الحق المسلوب.

سكت لحظات وقد احمر وجهه كأنما فقد الكلام ثم قال، وهو يعبث بأصابعه في الفراغ:

-وسأعلق المفتي المنافق اللعين من أوداجه في قلب عاصمتنا.

صمت الأمير وراح يسترد هدوءه، انكمشنا نحن أيضا داخل قوقعة الصمت المطلق، تجللنا الدهشة مما وقع، كم هي حقيرة هذه الدنيا التي

نتقاتل فيها على فتاتها، داهم صدري ضيق شديد، نحن الآن بحاجة إلى الخروج من هذا الكابوس المرعب، هممت أن أطلب الإذن بمواصلة الطريق، غير أن الرجل أسرع يعطي الأمر بإصلاح عجلة سيارتنا، واستضافتنا إلى الغد، قاطعته هبة وفي نبرتها حزم:

-نريد أن نواصل الطريق الآن؟

ولكزتها كي تسكت، لكنها استمرت غير مبالية بي:

-نريد أن نصل الليلة إلى بيتنا، لابد أن نفر من كل هذا الهم، لن نتحمل هموما لسنا سببا فيها.

هي ذي طبيعتها، حين تركب رأسها لا أحد يقنعها بالنزول، شعارها دوما: اقتنع واندفع، التصقت بها كأنما أترجاها أن تصرف التفكير في هذا الموضوع، وأنقذني الأمير وهو يقول:

-الطريق خطر جدا على حياتكما، لن يتوانى المارق بن المارق بن الزانية عن قتلكما ظلما وجورا، قضى رجاله عشرين سنة في الجبال، يبيحون دم الجميع، ويكفرون الجميع، من ليس معهم فهو ضدهم، وقتله عندهم عبادة.

سكتت هبة وهي تقرأ إصرارا في عيني الأمير، وانسحبنا حيث هيئ لنا مضجع للنوم،كانت الغرفة ضيقة، تنبعث منها رائحة الرطوبة، في أعلاها نافذة صغيرة لم يحكم إغلاقها، يصلنا منها نباح كلاب وصرخات أمواج، نزعنا أحذيتنا وجواربنا، وتخففنا من بعض ألبستنا، ثم تمددنا على فراش نحيف، كانت كل مفاصلي وعضلاتي تئن، أحتاج كثيرا إلى أخذ قسط من راحة.

وأنى للسكينة أن تتنزل علينا ونحن في رحم الرعب؟ لم تنم هبة، كانت تتقلب في فراشها كأنما تفترش ثلجا، كنت هامدا لكن عقلي أبى أن يستقر، بات يتقلب في جمجمتي، كأنما تنوشه الإبر، قلبت

صفحات ذاكرتي، رحت أقتحم الحرم المكي، وأقف بجوار الكعبة، كانت الاستغاثة تأتيني من عمق العمق، كنت أطوف بالكعبة، أجري، ألهث، لكني لم أعثر على مصدر الاستغاثة، لم أكن أرى إلا جثة معلقة هامدة، كانت الشمس حارقة، والغربان تملأ الجو تنعق بشراسة، كانت الجثة لعبد الله بن الزبير، وقد مزقت السيوف والحراب كل جسده، مددت أصابعي المرتعشة إلى الأعلى، أمسكت بخصره أهم بإنزاله، كان موثقا جيدا كأنما يُخشى فراره، جلست مسندا ظهري إلى جدار الكعبة، تحت الجثة تماما، كانت قدماه تلامسان رأسي، أي ذنب اقترفه هذا الشيخ المسكين ليفعل به هذا؟ أية قلوب خلت من الرحمة تصنع بالإنسان هذا؟ وأجهشت بالبكاء، وصلني صوت خلته صوت أسماء، وفر دموعك ولدي، إنها بداية الطريق، ستقتتلون كثيرا، وتبكون كثيرا، إنها بداية الطريق، تلفت أبحث عن صاحبة الصوت، طفت بالكعبة، عدوت، لا شيء غير الصوت، ستقتتلون كثيرا.. كثيرا.. كثيرا...

مدت هبة ذراعها فوقي وقالت:

-هل أنت نائم؟

أجبت دون أن أفتح عيني.

-كنت في مكة.

-حتى أنت أسري بك؟

-حلت على بركة مولانا السبط.

ورحت أعيد عليها الكابوس، وأنا ألعن التاريخ الذي لم يركم على عقولنا إلا المآسي.

هل يمكن أن يبقى فيها مكان للحلم، وكل أفراحنا وأقراحنا، وكل آمالنا وخيباتنا دم؟

هل يمكن أن تبتسم في أعماقنا الزهور، وقد تغشّاها موج

الصقيع القاتل؟

ماهذه العواصف الآتية من أعماق التاريخ، المحملة غبارا وعفونة، المتراكمة على جفون العقل؟

وكدت أصرخ، وأنا أحس بالاختناق، كدت أشتُم حراس التاريخ الملاعين، الذين لم يفعلوا شيئا سوى أنهم أوغلوا في استغبائنا.

وقمت، فقامت معي هبة، قائلة:

-لا بأس عليك، فلتعد للنوم.

10

## المركبات الشبحية

وصلنا البيت أخيرا محبطين تماما، كان الخطر يحدِق بنا من كل زاوية، رجال الأمن من شرطة وجيش يملأون كل مكان، وسياراتهم المصفحة في كل طريق، وحركة الناس أقل بكثير مما ألفته المدينة، على كل شيء كانت تخيم مسحة من حزن، زادها حزنا وكآبة اضطراب الطقس المفاجئ، تلبدت السماء وبرد الجو، أصرت هبة على الخروج، كانت تسعى إلى اكتشاف الجديد، رفضت طلبها، سأخرج بمفردي لاقتناء بعض لوازم البيت، حتى إذا حدث مكروه بقيت هبة بمعزل عنه.

دخلت المتجر عجلا، اقتنيت أغراضي، دفعت ثمنها، وانسحبت خارجا، عند الباب اعترضني محمود البقال وقد كان يتابع حركاتي، صافحني بحرارة لم أعهدها منه، حدثني عن التهاب الأسعار، ثم عن اضطراب حال الناس وضجرهم، ثم ألقى جملته الطعم.

-الناس لا يرحبون بالبكّاء.

رددت في نفسي: وهذا بيت القصيد، أحبولتك أوهى من بيت العنكبوت، أدرك جيدا أن هذا الشخص خطير، وأنه عين كل حاكم يعتلي العرش، كان جاسوسا علينا أيام أبي علي محمد بن عبد السميع بن السبط بن علي البوني، وربما هو جاسوس الحاكم الجديد،واهتديت إلى جواب منقذ.

-الناس يا محمود لا يقنعهم أحد، ولو تعاملوا مع الملائكة.

وانسحبت مبتعدا محملا بما اقتنيت، أحسست به يقف في باب محله،

يتابع سيري، يعبث بلحيته الحمراء، تنط عيناه في محجريهما، يبحث عن تهمة ما، هو يعرف أني لم أكن موجودا في البيت من مدة، لذا فهو حتما سيتوجس من ذلك.

حين دخلت البيت، وجدت هبة تتابع مفتي الإمارة وهو يقدم درسه الأسبوعي على شاشة التلفاز، وضعت المقتنيات على الأرض، ورحت أتابع الدرس، في حين نشطت هبة تعد لنا طعاما، كان المفتي بلباسه الأبيض ولحيته المتناسقة قد ازداد وسامة وأناقة، وبدا أكثر ارتياحا وانشراحا، كل درسه كان شرحا لقول نسبه إلى الإمام أحمد بن حنبل: "ومن غلب بالسيف حتّى صار خليفة وسمّي أمير المؤمنين، لا يحلّ لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماماً عليه، برّاً كان أو فاجراً، فهو أمير المؤمنين"، داعيا في كل مفصل من كلمته المؤمنين جميعا إلى مبايعة أبي عبد الله علي البكّاء، والاحتشاد لهذا الغرض يوم البيعة الكبرى.

علقت هبة وهي تطل من باب المطبخ.

-هذا المفتي يصنع لكل أمير ما يناسبه.

وفجأة انقطع البث، واهتز الباب طرقا، هرعت هبة تحمل عصا في يدها، تستعد لمعركة ما، نزلت الدرجات عدوا، اقتربت من الباب أتسمع، وصلني صوت محمود البقال دون أن يتوقف عن الطرق.

-افتحوا أرجوكم، افتحوا.

وفتحت الباب، وأنا أطمئن هبة هامسا.

-الجاسوس.

لكن الرجل دخل مضطربا مرتجفا، وخيل إلي أن لحيته المنتصبة قد ارتخت حتى لامست رقبته، وتعثر عند الباب حتى كاد يسقط، تلقيته أقيل عثرته، وسحبته إلى الأريكة، كانت هبة قد تحجبت وأقبلت دون

أن تغادر العصا يدها، أسرعت إليه بكأس ماء كان قريبا منا، استعاد الرجل عافيته وهو يقول:

-أعداؤنا الصليبيون.

انسحبت هبة تكمل عملها، واندفع محمود البقال يفصل الحديث عن المَرْكبات الشبحية الصغيرة، التي اشتد ظهورها أول ما اعتلى أبو عبد الله علي البكّاء سدة الحكم، صارت أقرب إلى الأرض، تجوس خلال الديار مرارا كل شهر، ترمي كل من صادفته بإبر تغرزها في رؤوسهم، وقد عادت الليلة بكثافة، فنشرت الهلع في نفوس كل الذين كانوا خارج بيوتهم، اضطرتهم إلى الاحتماء بأقرب البيوت والمحلات.

لم ننتبه لكل الذي وقع، غير أن أسئلة حائرة ظلت تدور في ذهني، ما الذي قرب هذا البقال الأشقر إلى بيتنا، حتى يحتمي به، هل كان في مهمة تجسسية؟

غادرنا محمود البقال قبل المغرب، ولزمنا البيت لا نبرحه، انقطع كل شيء حتى الكهرباء، لعل ذلك لغرض التعمية على المركبات الشبحية الطائرة، وانتظرنا عودة البث التلفزيوني أو الإذاعي دون جدوى، استسلمت هبة للنوم، وغرقت في تصفح كتب كنت أدسها في مكان خفي خشية أن تصل إليها الرقابة، ومضى الليل كله هادئا صامتا، كأنما يترقب شيئا ما.

مع الصباح الباكر، لم أشأ أن أوقظ هبة، حضرت قهوة، رحت أرشفها على مهل، وأنا أتطلع من بين أضلع النافذة القديمة، بدأت الحركة محتشمة خائفة، ولكن سريعا راحت الأقدام تتكاثر في الشارع، والجلبة ترتفع، وفي العيون شغف بمعرفة ما وقع بالأمس.

كان الوقت يلهث باتجاه العاشرة حين بلغنا ساحة اليرموك، كانت غاصة عن آخرها بالرجال والنساء، ملابس بيضاء ولحى مسدلة، ونساء

تجلببن بالسواد، غير أن الغريب هو أن الجميع نساء ورجالا كانوا يعتمرون خوذات حديدية، كأنهم سيخوضون معركة.

علمنا حين وصولنا مباشرة أن هذا الحشد إنما جاء لمبايعة الأمير أبي عبد الله علي البكّاء، الذي استطاع بفضل صبره وشجاعته أن يزيح الأمير السابق بعد أن قدم المئات من أتباعه شهداء، جلست إلى كرسي خشبي، وإلى جواري جلست هبة، نظرت في وقالت:

-صارت لك لحية.

-أحسن حتى أكون منهم.

-لا أريدك أن تكون منهم.

-ولكن علينا أن نعتمر خوذات كما يفعل الجميع، إنهم يحمون أنفسهم من خطر الإبر..

ووصلت أسماعنا أصوات سلاسل ترن مرتطمة بالأرض، التفتنا نتبين الأمر، تزاحمت الأقدام وعلا اللغط، وبين حشد من الفضوليين برزت مجموعة، اختلفت أجناسهم وأعمارهم، وقد قيدوا جميعا بسلاسل، من أقدامهم، أوقفوا قريبا منا، اعتلى أحد حراسهم حاجزا صخريا وخطب في الجميع :

-أيها المؤمنون، هؤلاء إخوانكم الذين نال العدو الصليبي منهم البارحة، وقد صاروا ملكه في كل حركاتهم وسكناتهم، وهم بهذا يشكلون خطرا جسيما علينا، وقد دعانا ذلك إلى تقييدهم كما ترون، فلنحذر جميعا من كيد الكافرين، أدعو إخواني جميعا لاعتمار الخوذات الحديدية، لأنها الوسيلة الوحيدة التي تحمينا الآن من شرهم، بل وإني لأدعو إلى سن قانون يغرم كل ممتنع عن ذلك .

قالت هبة، وهي تتلمس رأسها:

-سنغرم.

-لا تخافي لما يصدر القانون.

سحب المقيدون بعيدا باتجاه المنصة التي سيعتليها أبو عبد الله علي البكّاء بعد قليل، ليتلقى البيعة من أهل الحل والعقد أولا، ثم من عامة الناس، ولعله سيخطب في الأمة فيما يهمها ويشغلها، وربما يتناوب على المنصة غيره أيضا، هذه الحرب الالكترونية ستنسي الناس جميعا خلافاتهم وتطاحنهم من أجل السلطة.

طوقت هبة ذراعي وهي تهمس.

-انظر إنه هناك.

والتفت حيث أشارت، كان محمود البقال، وقد بدا أطول بخوذته، وبقطع الحديد التي تدلت على جانبي رأسه حتى كتفه، يلتفت إلى كل اتجاه، يوزع نظره في كل مكان، يقلب كل الوجوه التي تصادفه، أسرعت أعيد اللثام على أنفي حتى لا يتعرف علي،اقترب منا كأنما يتشمم الروائح، وقف إلى جواري، لعنته في سري وأنا ألتصق بهبة، التي ضاقت به ذرعا فأرسلت تأففها، وهدر مكبر الصوت والخطيب ينقر عليه، اشرأبت أعناق الجموع تتطلع إلى المتحدث، واندفع محمود البقال يشق الحشود مبتعدا عنا.

شرع المنشط في حديث طويل يقدم أبا عبد الله علي البكّاء، مذكرا ابتداء بأجداده الأوائل الذين جاءوا مجاهدين في سبيل الله لفتح أرض المغرب، مؤكدا أن ليس في هذه الأرض بلد لم يسق بدماء هؤلاء الأجداد، مركزا على جده الأكبر الذي كان سندا قويا بماله ودمه لعقبة بن نافع رضي الله عنه، والذي قضى معه شهيدا على هذه الأرض الطيبة التي يجب تحريرها من العلمانيين والمبتدعة، ليكشف للجميع في الأخير أن روح الجهاد والتقوى مازالت متأصلة في الحفيد أبي عبد الله البكّاء، الذي يعرف الناس جميعا بلاءه في الجهاد، ويعرفون شدة بكائه

بين يدي الله حتى سمي بالبكّاء، ويعرفون كراماته يوم النزال.

وقام البكّاء الذي ظل مطرقا إلى جواره، فهتفت الحناجر بالتكبير، ورفرفت الرايات في كل مكان حتى اهتزت الساحة.

افتتح الأمير حديثه بالحمد والصلاة على النبي الأكرم، ثم شرع يتلو آيات من القرآن عن صدق الإيمان، وعن المخلصين وما أعد الله لهم من نعيم، وأجهش بالبكاء حتى ضاعت الكلمات منه، ولزم الصمت، وتعالى بين الجميع تكبير وتهليل وتسبيح تعجبا مما صدر عن أميرهم، واستغل المنشط الفرصة فاندفع يقول بصوت عال:

-يا أمير المؤمنين، لقد بايعناك على السمع والطاعة ما أقمت فينا حدود الله.

وراحت الحناجر تردد العبارة مبايعة، وقد أجهش الكثير من الحاضرين بالبكاء، وقام من كان في المنصة من الأعيان وشرعوا يبايعون الأمير الجديد معانقة، وهاجت الحشود مرة ثانية تكبيرا وتهليلا، صائحة وهي تردد خلف المنشط.

-بايعناك بايعناك، أبد الدهر بايعناك.

فديناك فديناك، بالدم والروح فديناك.

ودفعني أحدهم حتى كاد يسقطني، مرق من بين الحشود غاضبا، وهو يتمتم.

-سيراق دمكم قريبا يا أعداء الله.

11

## قهوة ووشاية

زها الليل الطويل المظلم بشموع رقصت في بعض مفاصل البيت، قضينا شطرا منه نعانق ذكريات الحب بيننا، كنا في حاجة إلى مركبة أحلام مترعة بالورود والنسائم العذاب لتحلق بنا بعيدا عن الكابوس المرعب الذي وقعنا فيه، كانت هبة وهي تتمدد على السرير إلى جواري حسنا هاربا من جنة الأندلس الضائعة في غفلة من شعرائها، وكثيرا ما قلبت شعر الأندلسيين لأجد وصفا لها فأعود خائبا، لا يمكن أن تكون هبتي إلا إحدى حوريات الجنة، يتسع شاطئا عينيها تعجبا وأنا أسوق إلى ذاكرتها حدثا وقع بيننا، وتغرق في ضحك عصفوري عجيب، فأنصرف بجمعي عن كل جمالها وقد تملكتني موسيقى ضحكتها، وهبتي تضحك من أعماق أعماق قلبها، تضحك من كل ملامحها، حتى أصابعها تراها ترقص على الإيقاع العذب، حتى أسنانها التي تتجلى لؤلؤا مكنونا، وأحسست بخدر النعاس يراودني وقد تسرب خمر هبة إلى كل مفاصلي، تأرجحت روحي فوق خمائل بهائها ونمت.

عند الفجر تسلل دق خفيف، يدغدغ أذني يفك قيود نعاسي، فتحتهما مرارا أحل عقدهما الثقيلة، بدا الدق الآن أوضح، كانت الشموع قد انطفأت، وراحت خيوط ذهبية تتسلل باحتشام من شقوق النافذة، من يطرق بابنا اللحظة؟ هل يمكن للكابوس أن يعود بكل هذه السرعة، انقلبت هبة، وتدثرت من جديد تلملم حرارة النوم،

وغرقت فيه يهتز صدرها الناهد على عزف أنفاسها الهادئة التي باتت تعبق في البيت بشذاها الربيعي، استويت جالسا على حافة السرير، واندفعت إلى الباب، أحس الطارق بي، فأسرع يقول بصوت خافت:

-أنا أبو البنين المتيجي، افتح أرجوك، افتح.

أبو البنين المتيجي! ما الذي ساقه إلي؟ وفتحت الباب بهدوء، دخل، أرسلت عيني في الزقاق، كان خاليا إلا من بعض طيور راحت تستحم بنور الفجر، عدت إليه أسحبه إلى قاعة الاستقبال، أحكمت إغلاق الباب، تخلص من كل ما كان يدثر رأسه متنكرا، وضع مسدسه على الطاولة بيننا، بدا حزينا متعبا، وقد ذبلت عيناه واصفر وجهه، قلت:

-خيرا أبا البنين.

وقمت وقد تذكرت أني لم أقم بواجب الضيافة:

-لحظة آتيك بقهوة.

أمسك بيدي يعيدني إلى حيث كنت قائلا:

-شكرا لا داعي، تعرف أننا نقاطع القهوة من زمان، تنتجها شركات يهودية.

جلست مكاني، ألزم الصمت، أقلب النظر في ملامحه، وفي ذهني تدور عشرات الأسئلة، أدرك حيرتي، قال:

-تسأل عن سبب مجيئي؟

سكت لحظات كأنما يبحث عن رأس الخيط، تنحنح وقال:

-ديننا في خطر، الإسلام في خطر، أعداؤه صاروا كثرا، يتربصون به الدوائر في الداخل والخارج، يحتاج منا إلى تضحيات جسام، ولا معنى لأعداء الخارج، إن قضينا على أعداء الداخل، كنا نعد العدة، ونحشد الصفوف للقضاء على دولة الخوارج بتيهرت، وعلى الروافض الذين بدأ خطرهم يزحف علينا من الشرق، عيوننا تؤكد وجود بعض

رؤوسهم في بلاد المغرب، يقينا منا أن لن ينصرنا الله على أعدائنا حتى نقضي على الزنادقة والمبتدعين، لكن جرت الرياح بما لا نشتهي.

سكت، وقد رقصت دميعات في عينيه، ضغطهما بإصبعيه، كأنما يرفض أن تبوحا بجرحه العميق، هو رجل عسكري، وهم لا يسمحون أبدا بظهور ضعفهم، ومشاعرهم الرقيقة، تحينت الفرصة وسألت:

-وما المطلوب مني؟

-هؤلاء الذين بغوا علينا واستولوا على الحكم الذي هو لنا شرعا وعقلا، هم في الأخير إخواننا على منهج أهل السنة والجماعة، وقد توصلنا إلى أن النصيحة أولى، بدل ما بيننا من موت.

-صدقت.

لم أكمل لفظتي حتى هب واقفا، يمد عينيه إلى النافذة، وقفت معه، أخذ مسدسه، فدسه في جيبه، وأخرج من جيبه الآخر رسالة سلمها إلي وهو يقول:

-هي ذي رسالتنا إلى المارق بن المارق بن الزانية، نكلفك بحملها إليه، ونمهله ثلاثة أيام سويا، وإلا سنطبق عليه حكم الله.

وخرج، أردت أن أذكره بقول أحمد بن حنبل في وجوب طاعة من استولى على السلطة بالعنف، ولو كان فاجرا، لكنه لم يمهلني، ودخلت هبة، فأخرجتني من شرودي، سحبتها إلى المطبخ حيث كانت رائحة القهوة تدغدغ أنفي، جلست وأنا أملأ لي ولها فنجانين قائلا بسخرية:

-أتشربين القهوة أيتها الزنديقة، فتدعمين بذلك من يسيطر على شركاتها من اليهود والنصارى؟ سنقيم عليك حد الله.

ردت هبة ساخرة.

- معنى ذلك سنقتل الجميع.

رشفت من فنجاني الساخن بحذر وقلت:

-يجب أن تحكمي غلق النوافذ كلما أعددت قهوة، كثير من الأنوف تترصد رائحة قهوتك.

وغيرت فجأة مجرى الحديث، دون أن أسمح لهبة بالرد، وقد كادت تهم به.

-لَمَ تنجح كل الأفكار والمذاهب في بلادنا في حين تنكسر في موطنها الأصلي؟

-الطبيعة تأبى الفراغ.

وارتج البيت رجة عظيمة، ودلف البيت مجموعة من الجنود مدججين بالأسلحة يشهرونها في وجهينا، وقفت وفنجان القهوة فارغ في يدي، وخلفي وقفت هبة تمسك بكتفي تخشى علي خطرهم، صاح أحدهم فينا:

-أيها الخونة.

لم نبق إلا لحظات غيرنا فيها ملابسنا وخرجنا نُدعُّ دعا، حملنا في سيارة مصفحة قديمة مباشرة إلى الحجز، وقد كبلتنا الدهشة، ولم تمض إلا لحظات حتى أحاط بنا ثلاثة محققين، لم تخرج أسئلتهم السريعة عن حقيقة الرجل الذي زارنا، وعن علاقتنا به، ولم نخف شيئا، ذكرت لهم اسمه، وهدف زيارته، دفع أحدهم أصابعه الغليظة في رقبتي وصاح:

-أين أخفيت الرسالة؟

وركلني الثاني على ظهري، حتى انكفأت ممددا على الأرض، وصاحت هبة:

-وحوش، عليكم اللعنة.

ودفع الثالث ماسورة رشاشه في رقبتها، وهدأ الجميع، استويت وأنا أقول:

-الرسالة معنا، ونحن مكلفون بأن نسلمها لأمير المؤمنين أبي عبد

الله علي البكّاء، ولن نفرط فيها ولو قتلنا.

وقفوا صامتين، كأنما اطمأنوا لصدقنا وإصرارنا، وبإشارة دعاهم رئيسهم للخروج، تلمست شفتي العليا وقد جرحت، لم يكن الدم غزيرا لكنه لم يتوقف، راحت هبة تضغط عليه بإصبعها، وهي تسأل:

-من وشى بنا؟

- محمود البقال، لن يكون غيره.

وعاد رجال الأمن يسرعوننا، لنجد أنفسنا في السيارة المصفحة، التي انطلقت بنا على غير هدى.

أنزلنا أخيرا في مقر أمير المؤمنين، الذي علم بالأمر فطلبنا على وجه السرعة، استقبلنا عند الباب، أسمر، مربوع القامة، خفيف اللحية، أسودها، في وجهه نحول، وفي عينيه ذبول يخفي نشاطا وذكاء، وفي صوته بحة، ربطت بين كل ذلك وبين لقب البكّاء الذي أطلق عليه، صافحني بقوة، وسار أمامنا، دخلنا مكتبه، وجدنا جمعا من معاونيه، منهم المفتي الذي صار من أنصاره، راح الجميع يحدقون فينا، لاحظت كأن المفتي يريد أن يقول شيئا، لكن الأمير أسرع يقول لهم:

-لي كلام خاص مع الضيفين.

لم يعلقوا، بل انسحبوا طائعين، استوى على كرسيه وجلسنا قبالته، قال وهو يعبث بقلم في يده:

-تحديات كبرى تحاصر دولتنا الفتية، قدرنا على مواجهتها وتحديها، وحتى لعبة الطائرات الشبحية القذرة التي يلعبها معنا النصارى الملاعين سنتحداها، لقد شكلنا هيئة علمية لمواجهة حمقهم.

وفجأة غير مسار حديثه سائلا، وقد بدا عليه اهتمام كبير:

-علمت أن معكما رسالة إلي.

وأسرعت هبة تخرجها من بين تلابيب ثيابها، وتسلمها إليه، قلت:

-إنها من غريمك أبي علي محمد بن عبد السميع بن السبط بن علي البوني.

ووقف الأمير وهو يرتعش في مكانه، فض غلاف الرسالة، ثم غرق في قراءتها سرا، وقد اختلط على ملامحه غضب وتبسم ساخر، عاد إلى مكانه مضطربا، ودون أن يرفع نظره قال بهزء:

-يريدون الهدنة.

-دليل ضعف، أو دليل حب، أو...

علقت فقاطعني وهو يعيد الرسالة إلى الظرف.

-بل يريد سلما نتعاون فيه جميعا لبناء دولة قوية، تواجه عدوا مشتركا.

قام من مكانه، مزق الرسالة قسمين، رمى جثتها على مكتبه، سار خطوات، وقد بدا عليه الغضب، ضرب بقبضته على الجدار وقال:

-قاتلناهم عشرات السنوات، وأرقنا نهرا من الدماء، وقدمنا النخبة من رجالنا في سبيل الله، ويريد الآن أن يعود إلى السلطة من بابها الواسع دون أن يدفع الثمن، ما أحمقه، وما أضعفه، الحكم بيننا للرصاص، إنهم بغاة وحكم الله فيهم أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف.

وراح يصيح مناديا كاتبه ليرد برسالة نارية، لم ننتظره وغادرنا مقر الخلافة إلى بيتنا مباشرة.

توقفت بنا سيارة الأجرة عند حديقة عامة، راح حارسها يجهد نفسه في إبعاد العشرات الذين تجمعوا فوق اخضرارها، يلتفون حول زعيمهم، وهو يخطب فيهم بحماسة، محذرا من قرب ظهور الأعور الدجال، داعيا الجميع إلى الاستعداد لجهاده لأنه هو عدو الأمة الحقيقي والأوحد.

وانسحبنا نجر خيباتنا إلى سعة البيت الضيق، بعد أن صارت المدينة سجنا كبيرا مهيب الأسوار.

12

## نبش قبر النبي

بدأت الهجمات تضيق الخناق على الإمارة من كل جهة، لم يعد هناك أمان خاصة في القرى والأماكن المعزولة، ولم تعد الطرق سالكة إلا في واضحة النهار، منذ أسبوع انفجرت سيارة ملغومة في السوق اليومي، خلفت عشرات القتلى، وخلفت رعبا شديدا في النفوس، ونشبت مشادات متفرقة في معظم أحياء المدينة، خاصة حيث تتركز الجماعات المناوئة لأنصار البكّاء.

أعلن عن حالة طوارئ قصوى في الإمارة، وأخذ رجال الأمن أعلى استعداداتهم القتالية، ولم يستثنَ أحد حتى أمير المؤمنين الذي كان يرتدي بذلته العسكرية مدججا بالأسلحة مشاركا في الدوريات النهارية والليلية، جاعلا من نفسه القدوة الحسنة، باثا في رجاله الحماسة والثقة.

كثرت الاغتيالات، وصار الناس يستيقظون صباحا على منشورات هنا وهناك، تدعو الناس إلى الانتفاضة على حكم أبي عبد الله علي البكّاء، ومحاسبة الخونة وعلى رأسهم مفتي الإمارة، واختلطت الأمور، فلم يعد الصراع بين الطائفتين السلفيتين فحسب، بل ظهرت طوائف مختلفة ونحل متعددة، أشهرها على الإطلاق فرق الخوارج، التي بدأت أول أمرها سرا، ثم استفحل خطرها حين صارت بعض أحياء العاصمة من أتباعها، وصار يخطب لها في بعض مساجدها، وفرقة القرآنيين التي يشاع أن أتباعها هم

من الطبقة المتعلمة، وهي فرقة لا تؤمن إلا بالقرآن، رافضة ما يضاف إليه من سنة، ومن أعمال السلف، بل وظهرت أيضا جماعات شيعية أغلبها على مذهب الإمامية، وجماعات على مذهب المعتزلة، بل وعلمانيون أيضا، يتستر معظمهم خوف عنف السلطة، غير أن الاغتيال طال كثيرا من رموزهم وقادتهم.

لم نكن نغادر البيت إلا للضرورة القصوى، كنا قد كومنا ما يكفينا من المؤونة لأسابيع عدة، واستغنينا عن كثير من الكماليات، كان الاعتكاف فرصة عظيمة لالتهام عشرات الكتب، وعقد جلسات مناقشة عن محتوياتها، وكنا نتفكه أحيانا بما نسمعه من فتاوى العلماء، أو بالقراءة من كتبهم، مثل: "ما يجوز وما لا يجوز في نكاح العجوز" و"العطاس في نجاسة الحيض والنفاس" و"زبدة الدعاء لنصرة مولانا البكّاء".

ظهرت الأطباق الشبحية بعد منتصف النهار مباشرة، وتضاعفت بعد المغرب تحوم في أجواء المدينة الليل كله كأنها النجوم، انقطعت الكهرباء، فصارت المدينة عمياء، ولزم الجميع البيوت، وساد سكون حذر، تقطعه أحيانا محركات سيارات إسعاف أو أمن، لإدراك بعض من وقع فريسة الإبر الإلكترونية، ومع الصباح راح الناس يخرجون مترقبين عند كل منعطف، لقد اختفت الأطباق الشبحية تماما، وأرسلت الشمس أشعة باردة تختفي خجلا وراء سحب تراكمت هنا وهناك، وكان لزاما أن أخرج مع هبة، كنا بحاجة إلى تحريك عضلاتنا، واقتناء بعض ما يلزمنا، رفضت هبة ارتداء خوذتها الحديدية، رغم كل محاولاتي لإقناعها، كانت ترتديها لحظات، تسير بها متهادية، وهي تضحك قائلة:

-ألا ترى؟ لا فرق بيني وبين البعير.

سرت إلي العدوى فرميت خوذتي أيضا على السرير فيتجاهل، قائلا:

-رغم كل شيء سأتضامن معك.

كان دكان محمود البقال مقفلا على غير العادة، وكانت الحركة في الشوارع باهتة، كل شيء صار يدعو إلى الخوف، سيارات الإسعاف والشرطة في كل مكان، استعدادا لكل طارئ، الناس يسيرون بحذر، يلتصقون بالجدران خشية مباغتة الأطباق الشبحية، عند مدخل حديقة الشهداء علق إعلان وفاة محمود البقال، ماكدت أقرأه حتى التفت إلى هبة قائلا بدهشة:

-مات محمود البقال.

-قرأت، ولكن...

وضغطت بيدي على أصابعها ألزمها الصمت، كنت أستمع إلى متحدثين قريبا منا، واصل الثاني:

-وجدناه هذا الصباح مشنوقا أمام دكانه، وفي فمه رسالة، ما كدنا نفتحها لنقرأ ما بها حتى حاصرتنا الشرطة، ولولا أن أحدهم يعرفنا، لكنا الآن في السجن.

ضحك صاحبه معلقا:

-نصحتك ألف مرة بأن لا تهتم إلا بنفسك، قناعتي: أنا ومن بعدي الطوفان.

سحبتني هبة فانطلقنا نواصل المسير، ورغم الكآبة التي كانت تطوق كل شيء، كنت أحس حرارة يدها تدغدغ نياط قلبي حبا وهياما، ظلت صامتة لمئات الأمتار، وبقيت كذلك، لقد قتل محمود البقال بطريقة بشعة، ومن سيكون التالي غدا أو بعد غد؟ أعدت إلى ذاكرتي صورة الطائر العجيب، وتساءلت، هل يمكن أن نراه في هذا الموج من الحقد والظلم والتخلف؟ هل يمكن أن يخرج الجمال من القبح؟ ربما

يكون الطائر العجيب مهدي هذا العصر، أو لعله مهدينا على الأقل، قلبت بصري في السماء كأنما أستعجل قدومه، لاشيء غير قطع من سحاب راحت تتنادى من كل صوب، لعلها تمطر مساء، كم كنا بحاجة إلى مطر يغسل كل شيء فينا، يتغلغل إلى أعماق أعماقنا.

عدت إلى نفسي، بدأت الشوارع تمتلئ بالحركة، ومازالت هبة تتدثر جلباب الصمت، سألت:

-فيم تفكرين؟

قبل أن تبرح النون رأس لساني أجابت:

-الطائر العجيب.

ضحكت حتى سمعت قهقهتي، كانت مصادفة جملية، وسألت:

-وأي سحر في الطائر العجيب يا هبة؟

-أريده أن يحلق فوقنا فجأة، ثم يحملنا بمخلبيه، وينطلق بنا إلى الأعلى، الأعلى، الأعلى، ثم يرمي بنا في جزيرة، ليس فيها إلا أنا وأنت.

كنا قد وصلنا عند العين الفوارة التي احتلت مكان تمثال الأمير، رحت أتأمل الحركة حولها وقلت:

-سأكون أنا السندباد وأنت السندبادة.

ورحت أقص عليها ونحن نتابع تدفق ماء النافورة إلى الأعلى، حكاية السندباد حين تعلق برجل طائر الرخ ونزل به إلى وادي الموت، سألت هبة بخوف:

-وهل بقي هناك؟

-حتما لو كانت معه هبة سيبقى، لكنه كان بمفرده.

لماذا تريد هبة أن يكون الطائر ضخما عملاقا، يمكنه أن يحمل شخصين بمخلبيه؟ وما كنت أتخيله إلا في حجم الطاووس، حتما لأن رغبتها الكبرى أن تفر من هذا العالم المقرف، أن تحلق بعيدا عنهم

في السماوات العلى، ولن يحقق لها ذلك إلا طائر ضخم في حجم طائر الرخ.

عند باب مكتبة ابن تيمية كان يتدافع المئات من الناس في طابور طويل، إنه موعد مجيء كبير الرقاة الشرعيين أبي علي إسحاق بن إبراهيم السلفي ليقدم علاجه لمرضاه في هذه المنطقة، والذين اختلفوا في أعمارهم وأجناسهم وأشكالهم وأمراضهم التي بدت واضحة على بعضهم، واتفقوا كلهم في إيمانهم بكرامات الشيخ، وقدراته السحرية على شفاء مرضاه، وتحول عاملا المكتبة إلى حاجبين يرفع كلاهما صوته بالتناوب من حين لآخر مذكرا بفضائل الشيخ وبركاته وكراماته.

وفجأة اندفع سيل من الناس عبر شارع المجاهد الشهيد أسامة بن لادن، كأن سعارا قد ركبهم، وهم يهتفون جميعا بالتهليل والتكبير، ووقفنا نتابع تدافعهم الذي ظل يتكاثر، ثم يتوقف غير بعيد في ساحة عامة أمام البريد المركزي، حين وصلنا كان الجمع حاشدا، وكانت اللافتات ترتفع في كل مكان، وكانت الصيحات قد ملأت الفضاء، بعض الرجال والنساء كانوا يوزعون الماء على الناس، ويقدمون الإسعافات لبعض من اشتد تأثرهم فتهاوى مغشيا عليه تعبا أو قلقا، أو هما معا، ونشط بعض الشباب يوزعون مناشير وصحفا، أسرعت هبة تلتقط بعضها، قرأتها سريعا وسألت:

-هل سمعت بشيء يسمى معهد الأنبياء؟

-لا

وغرست رأسي في الورقة التي لم ترفع هبة عنها رأسها أيضا.

قال أحدهم وقد كان يتابع حديثنا.

-معهد أنشأته الماسونية العالمية في الغرب منذ عقود، هدفه تقديم

بحوث ودراسات عن الأنبياء، من زوايا نفسية واجتماعية وطبية.

قلت دون أن أفطن لفلتة لساني.

-جيد.

رأيت غضبه على وجهه يمتشق سيفه، وقال:

-كيف تُجوّد هذا الحمق والكفر؟ الأنبياء فوق البشر، وفوق علوم البشر ومناهجهم.

ابتلعت ريقي وقد انتصبت لحيته كأنها السهام، التصقت بي هبة تهم بأن تنهره، وقد اتسعت عيناه الحمراوان كأنما تتدفق منهما حمم بركان عملاق.

-ما انهزمنا إلا لتخاذلكم، هل تقبل أن تسرق هذه العصابة اللعينة جثمان النبي الطاهر، لن نعود إلى بيوتنا حتى ننتقم لرسول الله، ونعيد جثمانه الطاهر إلى مثواه أو نحيل الكرة الأرضية إلى جحيم، نموت جميعا ولا يتجرأ على ذرة من قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

سألنا معا باندهاش:

-سرق جثمان النبي؟

عرفنا بعد ذلك كل تفاصيل الحادثة، عصبة من العلماء من معهد الأنبياء تستولي على جثمان النبي صلى الله عليه وسلم، بعد نبش قبره، وفي تصريحاتها لا هدف لها سوى مواصلة دراستها عن الأنبياء من كل النواحي.

وانطلقت الخطب النارية، ومعها دوى الفضاء بصيحات التكبير والوعيد، وزخات الرصاص، وتقدم إلى المنصة مئات من الشباب وقد غطوا أجسادهم بالأحزمة الناسفة استعدادا للموت في سبيل الله، في وقت بدأت الصحون الشبحية تظهر ثم تختفي فجأة.

اقترب منا ملثمان، توجسنا منهما خيفة، كنت أركز نظري على أيديهما لأرد أي عنف قد يصدر عنهما، قال أحدهما كالهامس:

-أمير المؤمنين ينتظركما.

اختلط الأمر علي، أي أمير يقصد الأول أم الثاني؟

أزال اللثام سريعا ثم رده، عرفت أنه أحد حراس أبي عبد الله علي البكّاء، قال:

-أردتك أن تطمئن.

ركبنا سيارة وانطلقنا.

حين دخلنا مكتب الأمير كان يعقد اجتماعا مع أقرب مقربيه لمناقشة الأوضاع الأخيرة التي استجدت على الساحة، أشار الأمير إلينا أن نجلس دون أن يوقف كلامه، قال كأنما يعيد ما بدأه.

-قلت إن تحديات جساما تعترضنا، وتحاصر ديننا، ونحن مسؤولون عند الله عن كل ما يقع، وكل شيء أيها الإخوة يهون ما عدا أن تنتهك حرمة قبر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، والله لبطن الأرض خير لنا من ظهرها.

وأجهش بالبكاء، فصاح الجميع، يلوحون بأذرعهم إلى الأعلى:

-بأرواحنا نفديك يارسول الله، بأرواحنا نفديك.

تخطى الأمير بنظراته الأذرع الملوحة يتأملني كأنما يطلب رأيي، انتبه إليه الجميع فسكتوا، قلت:

- أعتقد أن الأنبياء فكرة وقيمة ومبدأ، وليس جسدا، لأنه ليس إلا الجانب البشري منهم، وهم سيظلون بيننا بما بذروه في البشرية من قيم سامية.

وارتفعت همهمات استنكار في القاعة، أحجمت خائفا، ولاحظ الأمير أن الأمر سيخرج عن السيطرة، فغير وجهة أشرعة الحديث.

-سنرسلكما برسالتنا إلى المارق بن المارق أبي علي محمد بن عبد السميع البوني.

وأشار إلينا فقمنا، تلقينا من أحد مستشاريه ردا على رسالة أبي علي محمد البوني، وانطلقنا.

13

## تنهشنا السباع

زغرد الرصاص في أذان الفجر، كنت أستعجل هبة لننطلق في طريقنا، فقد كان كل همي أن نوقف هذه الحرب الملعونة، لم أعد أطيق أن أسمع رصاصا، ولا أن أرى دما ودموعا، حين حضرت نفسي كانت هبة تجلس على كرسي تشد سير حذائها، وهي تغمغم في قلق:

-لم أعد أطيق، لم أعد أطيق.

قلت وأنا أهم بفتح الباب.

-كلنا لم نعد نطيق، لذا فلا بد أن نسعى لإنهاء هذا الكابوس.

-أنت مندفع دوما، ألا تعرف خطوطا متعرجة؟

عدت لأجلس قبالتها، وقد صارت سماء غائمة، وأنا أعرف غيمها، لن يعدو أن يكون سحاب صيف، مايفتأ أن ينقشع، قلت وأنا أتبسم:

-ما أردت؟

قامت من مكانها ملوحة بيدها، كأنما تريد أن ترفع درجة توترها.

-فلنهرب من هذا الكابوس، أريد أن نعود إلى أنفسنا، نبني بيتنا حيث أشرت عليك سابقا، أريد أن أحيا في حضن الطبيعة، لم أعد أطيق هذا النوع من البشر.

-هل تعتقدين أن الهروب حل؟

- أريد حلا لنفسي، وليذهب الجميع إلى الجحيم، لست مسؤولة عن هذا العفن، كل مكانس الأرض لن تنظف عقولهم، إن كان لهم عقول.

أمسكت بيدها، وخرجنا، كانت قد هدأت تماما، تغضب بسرعة،

لكنها سريعا تهدأ أيضا، قلبها أشبه بجوهرة نادرة، تكفي لمسة خفيفة لتعيد إليها لمعانها، كان لزاما علينا أن نقطع دروبا وعرة خطرة، لنصل حيث نلقى أبا علي محمد البوني، ظل الرصاص يعزف ألحانه المتقطعة، وراحت حدته تزداد مع تقدمنا في السير، سألت هبة:

-أين يمكن أن نجده وسط هذه العواصف من الموت؟

-ربما نقصد البيت الذي وجدناه به سابقا.

قالت وفي نبرتها سخرية:

-هل تتصور قائدا في حجمه، مطلوبا للموت في كل لحظة، يلزم مكانا واحدا؟

حقا ماذهبتْ إليه، غير أن المنطقة كلها تحت سيطرة رجاله، وإن لم نجده حيث كان، فإن رجاله سيأخذوننا إليه، حيث هو، قلت لهبة وأنا أوزع نظراتي في كل اتجاه:

-المهم أن نصل أولا.

انكمشت هبة كحمامة مذعورة، وضغطت بكل أصابعي على المقود كأنه حبل نجاة،غير أن استمرارنا في التقدم بدا مستحيلا، صارت الرشاشات تولول قريبا منا،اندفعت هبة فجأة بغضب وهي تضرب على كتفي قائلة:

- لم أعد أشك في جنونك، تريد أن ترمي بنا في أتون الموت؟

أوقفت السيارة، أسكت صوت المذياع الذي كان يعيد تقديم محاضرة لسماحة المفتي، يقارن فيه بين رأي أهل السنة والجماعة ورأي الإباضية، في مكان وجود الله، أهو في السماء أم في كل مكان؟ ما عسانا نفعل الآن؟ لا مناص من العودة، كل خطوة إضافية تعني الانتحار المحتم، حلقت الطائرات عاليا في السماء، وصمت آذاننا من جديد طلقات مدفعية، وصوت انفجارات مدوية، كانت تأتينا هذه المرة من

قلب المدينة، هل يمكن أن نحاصر هنا؟

انعطفت بالسيارة عائدا، كانت هبة قد عادت إلى محراب الصمت المطلق، فعجت إلى أطلاله أيضا، أحتمي به من حماقتي، فعلا لقد كانت هبة على حق، ما لنا ولكل هذا العفن، لمَ ننوء نحن تحت أحمال لم نصنعها، نسينا كل ما جئنا من أجله، نسينا حبنا وأحلامنا، نسينا الطائر العجيب، وأنى لهذا الطائر أن يظهر في جو موبوء بالأحقاد والفتن؟

وتراءت لنا من بعيد سيارتان مسرعتان، حين اقتربتا منا توقفتا فجأة، قالت هبة دون أن تشيح نظرها عنهما.

-لقد توقفوا.

قلت بصوت خافت، دون أن أصرف عنهما نظري، وأنا أخفف السرعة حتى تكاد السيارة تتوقف.

-رأيتهم.

وبدأ الرجال ينزلون، مدججين بالأسلحة، وقاذفات الصواريخ.

ومددنا معا رأسينا حتى كادتا ترتطمان بالزجاج، نشطت مجموعة تنزل أسيرا، سحبه أحدهم من لحيته بقوة، ودفعه اثنان برشاشيهما، وتخلف مسلحان يؤمنان المكان.

لم يكن من الصعب أن نتعرف على الأسير، وقد كان رغم البرد الشديد عاريا إلا من ثياب خفيفة، قلت لهبة:

-إنه المفتي.

قالت بصوت خافت دون أن تطرف:

-أجل، إنه هو، لقد عرفته.

واندفعوا جميعا داخل الغابة.

قساوتهم مع المفتي ألجمتني، أفقدتني الإحساس بكل شيء، صاح فيّ أحدهم فجأة وهو يطلق الرصاص في الفراغ.

-ابتعد أو أزهقنا روحك.

اضطربت في مكاني، لم أعرف من أين أبدأ، كنت أضغط على الدواسة وفرامل اليد مثبتة، فيدوي صوت المحرك كأنما يتجاوب مع دوي الرصاص، فكت هبة قيد الفرامل فاندفعت السيارة، ترمي بشرر الأتربة خلفها ورحنا نخوض في حفر وأوحال، لا تكاد العجلات تستوي على الطريق.

اخترقنا البيوت القصديرية المحيطة بالمدينة، نباح كلاب وروائح عفن، سواق وبرك مكفهرة الملامح، أطفال يتجمعون في الزوايا كقطعان الأغنام والماعز، يحدقون فينا ببلاهة أحيانا، يطاردوننا، ويرموننا بالحجارة تارة أخرى.

حين ولجنا أولى شوارع المدينة المعبدة، تحررت هبة من أغلال خوفها، ظلت تحدق في، كأنما تقلب صفحات اللغة عندها، تبحث عما يستوعب فكرتها، ورغم أني كنت أركز نظري على الطريق، إلا أني كنت أقرأ بوضوح غضبها، اختصرتْ حممها في قولها:

-رأسك يابسة.

جملة كنت أنتظرها، تعودت هبة أن تقولها لي كل مرة تراني فيها عنيدا، لم أرد ولكني رحت أحك رأسي، قد يكون المرء عنيدا أحيانا، ولكنه في أحيان كثيرة لا مفر له من أن يسلك طريقا خطه القدر، وللقدر عجائب لا ندري نحن أسرارها ولطائفها، أردت أن أقول لهبة أليس هذا التحليق بين أزمنة متناقضة أفضل لنا من أن نسير على خط مستقيم بائس ينتهي بنا إلى انحدار مرعب مخيف، يطوينا في نهايته جوف العدم المظلم؟ تذكرت الشيخ القطب، شتان بين المشهدين، مشهد للنقاء والسمو، ومشهد للدنس والهبوط، ما وجدنا عنه محيصا.

وانتبهت من سرحاني وأنا ألمح سيارة عسكرية تخترق الطريق

خلفنا بسرعة مريبة، تملأ سمع المدينة بصوت بوقها المزعج، خففت السرعة والتزمت أقصى اليمين، غير أن السيارة توقفت أمامي تقطع عنا الطريق، نزل منها مسلحان، لم ندر كيف أخرجانا من سيارتنا وقادانا إلى السيارة العسكرية في لمح البصر، وقد غشيتنا دهشة كبيرة.

لزمنا الصمت داخلها، وقد كان الأربعة يوجهون رشاشاتهم إلينا، لم يكونوا بحاجة إلى سلاسل وقد قيدنا الخوف.

في مقر الخلافة وجدنا التهمة كبيرة جدا، قال أمير المؤمنين وهو يضرب بعصاه على كفه:

-تعرفان ما حكم الخيانة؟ نرمي بكما في قفص السباع لتنهشكما.

داهمتني موجة من القشعريرة، واقتربت هبة مني حتى التصقت بي، واصل الأمير دون أن يريح عصاه.

-أهذا جزاء من فتح لكما قلبه وبيته؟

سألت هبة متلعثمة.

-عن أي خيانة تتحدث أيها الأمير؟

صرخ الأمير في وجهينا وهو يصوب عصاه إلى وجه هبة.

- كنتما وراء اختطاف الشيخ المفتي، إما أن يعود سالما معافى، أو ...

وتناثر كلامه مع لعابه في كل الاتجاهات فلم أفهم ما بقي من الجملة، من حق الأمير أن يغضب لاختطاف الشيخ، وأن يتوعدنا بأقسى العقوبات، فهو والد زوجته الرابعة، وهو ركابه إلى ظهور الناس.

وتناهت إلى أسماعنا جلبة وصياح، صدهما الأمير وهو يغادر الغرفة التي كنا بها، سألت هبة:

-ما هذه التهمة؟

-اسأل نفسك، حتما أنت ستقيم الأفراح حين تنهشنا الضواري، رجوتك ألف مرة أن نبتعد عن هذا العفن، غير أنك تصر دوما بعنادك

على البقاء، لو كانت لنا ألف روح لكانت قد انتهت.

ودخل الأمير علينا ثانية، ولحق به خمسة رجال، عرفت منهم أبا مصعب عبد الرحمن الخطيب، رجل دين له مكانة كبيرة في المدينة، لخطبه النارية وقعُ السحر في قلوب الناس، كما عرفت تاجرين كبيرين، يشاع أنهما زحفا على كل شيء يمكن أن يباع فامتلكاه، ولا يمكن للآخرين إلا أن يكونا من رجال الدين أو التجارة رغم حداثة سنهما، لم يكن شيء يميز طائفة عن أخرى، خاصة وقد اشتركوا جميعا في الملابس واللحى.

أشار الأمير إلينا وهو ينظر إلى رجل الدين، وقال مهددا:

-غدا ينفذ فيهما حكم الإعدام، غدا تنهشهما السباع.

رد عليه أبو مصعب عبد الرحمن الخطيب، دون أن يبالي، وقد بدا غاضبا جدا:

-ليس من أجل هذا جئنا، وليس بقتل هذين نرد الشيخ المفتي.

ولاحظت الدهشة ترتسم على ملامح الأمير الذي غزا الشيب لحيته، لم ينبس ببنت شفة، وواصل كبير التجار بحزم:

-الناس كرهوا الحرب، سعادتنا في قوله تعالى: "فأطْعمهُمْ مِنْ جُوعٍ وآمنهُمْ مِنْ خوْفٍ"، لا بد للحرب اللعينة أن تتوقف، لا بد أن تتوقف.

حرك الأمير شفتيه اليابستين، وراح يبللهما بلسانه مرارا، واصل أبو مصعب عبد الرحمن الخطيب:

-وإن جنحوا للسلم فاجنح لها، وهو مبتغاهم، من أجل حقن دماء المؤمنين فلنتصالح، ولنقتسم السلطة، أعداؤنا على الأبواب، وعلينا أن نباغتهم في عقر دارهم.

وتنفس قلبي نسائم الأمن، رفعت عيني في هبة مبتسما، ولا أدري إن كانت قد تنبهت من خلف غلالتها لابتسامتي الباهتة أم

لا، خرج الجميع من الغرفة، أسرعت هبة ترفع البرقع عنها، وتملأ رئتيها بالهواء، قائلة:

-حتى متى يخطئنا الموت؟

في المساء استكانت المدينة إلى كهف الصمت، وتوقفت زخات الرصاص التي كنا نسمعها من حين لآخر، علمنا بعدها أن سِلم الإخوة كما سمي قد تحقق في الإمارة، وأنه قد تم الاتفاق على تقاسم السلطة، وبدأ الاستعداد لإقامة الاحتفالات المخلدة لهذا الحدث العظيم.

أحس الناس أخيرا بالاطمئنان، وامتلأت الشوارع والساحات بالشعارات، تتصدرها الآية القرآنية "إنما المؤمنون إخوة"، دون أن تخلو من الدعوة إلى النفير العام لمحاربة الشيعة والخوارج، وكل الفرق الضالة المضلة التي انحرفت عن منهج الله ورسوله والسلف الصالح، ودبج القادة رسالة استنجاد وزعت على جميع الناس وأذيعت في القنوات الفضائية والإذاعية، لكل الإمارات التي هي على نهجهم.

لم نبرح بيتنا طيلة أيام متتالية، كنا بحاجة إلى الراحة النفسية قبل الجسدية، كنا بحاجة إلى أن ننام على إيقاع دقات قلبينا، أن نستروح عبق الحب الذي فر منا، أن نعيد ذكريات نقشناها في كل مكان وطئته أقدامنا، مازالت تهتف بأغانيها الصخور والأعشاب ورمل الشاطئ، وشمس طالما طاردناها ضاحكين وهي تختفي حزينة في الأفق، ونجوم همسنا في آذانها أن تحفظ أسرارنا، وليل طالما دثرنا لننام في أحضانه.

14

## الطريق إلى الله

وقفت هبة بعيدا، وقد انبسطت أساريرها، وصار وجهها لوحة ربيعية زاهية، ممشوقة القد، ضامرة الخصر، موردة الخدين، يحتضن حاجباها النحيفان الأشقران عينيها بكثير من الحب والتناغم، عيناها بحيرتان ربيعيتان تحس حولهما فراشات تحوم، وعصافير تغرد وترقص، وورودا تعبق بالعطر المنعش، ضغطت بمرفقيها تعدل من هيأة سروالها البني، كانت أصابعها الطويلة النحيفة قد تلطخت بطين البناء، قالت منتشية وهي تحدق في البناء:

-وأخيرا استوى البيت حيث أردت.

وأسرعت تطل من الجهة الأخرى للهضبة، وصاحت:

-تعال، انظر، تستطيع أن تمد بصرك حيث تريد لا يقمعك حاجز أبدا، وتنشقْ تملأْ رئتيك بالحياة.

وسحبت بقوة تملأ رئتيها، ثم اندفعت ترتفع على كتف الربوة الأيمن، ثم عادت أدراجها حيث وقفت، وارتمت في أحضاني تطوقني بحرارة، صمتت طويلا وقالت دون أن تفلتني.

-دعنا نعش حبنا يا حبيبي، الحياة أقصر مما نتصور، ونحن هاهنا أعلى وأسمى.

في المساء أشعلنا نارا، بحطب جمعناه من عشرات أشجار غابية نبتت قريبا، أحطناها سريعا بحجارة تحضنها من ريح تهب مشاكسة، ورحنا عليها ننضج طعامنا، تضحك ألسنتها وهي تمتد مداعبة فتقرص

أصابعنا، نضمها إلينا ونغرق في ضحك طفولي بريء، وتغضب النار من تصرفنا فتنفث في أعيننا دخانا يدر دمعنا إدرارا، جلسنا داخل البيت نلتهم ما أعددنا، هل كان أبوانا آدم وحواء بمثل هذه السعادة؟ إذن عليها اللعنة هذه الحضارة التي بناها الإنسان، وعليها اللعنة كل هذه القيم التي نظل نتشدق بها وننقشها في كتبنا، ثم نمتشق بها سيوفنا لنجز رقابنا.

كانت تلك أول ليلة لنا نبيتها في حضن الطبيعة، نتعانق على هدهدة أصوات الحشرات والوحوش، فنمتلئ اطمئنانا وراحة، ومع الفجر الأول نشطنا، كانت نسائمه المحملة بشذى الأعشاب البرية تمد أياديها إلينا، تفتح أجفاننا، تطبع قبلاتها على عيوننا، تقودنا من أيدينا إلى الخارج، تنبض السعادة في أعماقنا، نضحك بفرح طفولي، لقد تربعنا على عرش المحبة، تمد هبة ذراعيها الطويلتين إلى الأعلى.. الأعلى، وتقف على مشط رجليها، وتصرخ بأعلى صوتها، ثم تغرق في الضحك وهي تعيد ذراعيها إلى الأسفل، وتنحني حتى تكاد تسقط.

نشطنا طيلة اليوم، نعد أماكن للراحة داخل الغابة، أراجيح مختلفة، ومرابض دافئة، وانشغلنا بعدها بتعميق نبع الماء لتتدفق شراينه أكثر من قلب الهضبة، وبقدر ما جرى الماء قويا جرى عذبا فراتا، كانت هبة تلوح بالمجرف إلى الأعلى صائحة: وجدتها.. وجدتها.، تملأ حفنتها وترشها فجأة على وجهي، وتهم بالفرار فتنزلق، وأتراذذ عليها ماء وحبا، ونمتلئ عشقا وفرحا طفوليا.

عبر ساقية متعرجة مغردة سقنا الماء إلى الأسفل، كان لزاما علينا أن نصيّر المكان ذي التربة الخصبة جنة، نقضي شطرا طويلا من النهار، نطرز جسد الأرض، نرسم عليه لوحات بديعة للحياة، فيفيض علينا بهاء وسرورا.

كان الصباح رائقا، وكنا نجلس على كرسيين صنعناهما من أغصان الأشجار، يتفيأ رأسانا ظل الجدار، وتمتد أرجلنا تختزن حرارة الشمس لشتاء سيحل قريبا، كانت هبة وهي تتصفح كتابها الزراعي، ترتشف قهوتها أيضا، وكنت أتابع بعيني شجيرات فواكه غرسناها حديثا حول البيت إلى حدود الغابة، وراودت ذهني فكرة تربية النحل أيضا، أليس من الأفضل أن نمتلك صندوقين أو ثلاثة؟

وبدأت حياتنا تهنأ، ورحنا نتنشقها ملء صدرينا، حيثما نول فثمة الأمل، رغم أن هاجسا للخوف ظل يرسم خطوطه السوداء، وهو ما فاجأنا ذات عشية حين دق بابنا شاب جريح، عملت جاهدا مع هبة على إنقاذه، كان جرحه غائرا مميتا، وقد سكن سهم كتفه الأيمن، لقد حكم عليه بالموت شنقا، وحينما فر طارده سهم الغدر، لا ذنب له إلا أنه كان من المتفلسفين، والفلسفة عندهم زندقة، ومن تفلسف فقد كفر، ليس جديدا، لقد قتلوا باسم الدين العشرات، قفز إلى ذاكرتي ابن المقفع والحلاج وهما يصلبان في بغداد.

لفظ الشاب أنفاسه مغرب ذلك اليوم، لم تفلح كل محاولاتنا لإنقاذه، ولم تفلح صيحات هبة المفجوعة في أن ترده إلى الحياة من عدم ذهب إليه إلى الأبد.

ودفناه خلف الغابة، لعله أول شهيد يدفن هاهنا، تحتضنه هذه الربوة العذراء، احتفظت هبة بما كان يحمل من كتب ودفاتر، قلبتها مرارا ثم دستها في حقيبتها كمن يخفي كنزا ثمينا، غير أنها منذ ذلك اليوم دخلت في حالة صمت كئيب، ولم يعد لها من هم سوى أن تسرح بعيدا تتقاذفها أمواج الحيرة والقلق، وفشلت كل محاولاتي لإخراجها من انهيارها، فاحترمت صمتها ونبت عنها في القيام بكل شيء.

أمسينا يوما في أعلى الهضبة يجللنا صمت حزين كأنما نمارس رياضة

اليوقا، أحسسنا بوقع سنابك أحصنة تصل مسامعنا، عجلنا نتبين الخبر، كانوا ثلاثة فرسان يتقدمون نحو بيتنا بسرعة، دخلت هبة فيما بقيت بعيدا عن الباب، لم تلح على وجوههم علائم الشر وهم يقتربون منا، ترجل أحدهم مصافحا بحرارة:

-السلام عليكم، قصدنا هذه الأشجار للراحة، فهل تأذن لنا؟

وأسرعت إليهم بطعام وماء، كانوا قد سبقوني إلى فتح مزاود الطعام، وشرعوا يأكلون بشراهة، يظهر أن الجوع قد كاد يفتك بهم، قال كبيرهم وهو يتكئ على جذع شجرة.

-شكرا لكرمك، عندنا ما يكفينا.

كانت لهجتهم المشرقية واضحة، ظللت أتساءل، لَمَ يقطع هؤلاء آلاف الأميال؟ هل هم مغامرون؟ أم هي مجرد سياحة لا غير، كأنما أحس كبيرهم بحيرتي فقال:

-جئنا لننقذ الناس من انحرافات الفرق الضالة، إلى جوهر الإسلام الصحيح وحقيقته.

وتشعبت بنا الأحاديث التي ظل بعضها يأخذ بتلابيب بعض، انتهوا أخيرا إلى تلقيني الشهادة الحقة التي تدخلني الجنة وتنقذني من النار، بما فيها من حب ولعن، وما فيها من شر وخير، وانطلقوا وقد أفلت الشمس خلف قمم الجبال، تمددت مكاني أعيد شريط حديثهم متسائلا، هل اختلاف البشر في الوصول إلى الله هو باب كل شر؟

ولم تتوقف علينا الوفود منذ ذلك اليوم، تختلف في زوايا النظر إلى الحقيقة، وتتفق جميعا في اعتقاد أصحابها أنهم من الفرقة الناجية، وظللنا نستمع للجميع في حيرة كبيرة، كلما بنت جماعة منهم فكرة هدمتها جماعة أخرى، وخاض الناس جميعا في سوق الجدال، لا هم لهم إلا أن يخوضوا في ذلك كمن يخوض في الوحل.

كنت أعيد إلى ذاكرتي ما قرأته عن علم الكلام، وعن رجاله الكبار، فهل يعيد التاريخ نفسه؟ وهل ننتظر بعثة عباقرة جدد في حجم واصل بن عطاء والعلاف والنظام والجاحظ؟ هل يلزم كل هذا الغثاء، وكل هذا الرماد وكل هذه الرداءة، لننتظر بعثة أنبياء جدد، يطهرون القلوب بالحب، وينيرون العقول بالمعرفة، ويرتقون بالإنسان إلى مصافه العليا؟ وهل يمكن أن أقنع هبة بكل هذا الحلم الجميل؟ حتما ستصرخ في قائلة:

-أفق من نومك.

تذكرت عمار العاشق، لمعت في ذهني لوحاته البديعة، تذكرت هديته الثمينة، صرخت في أعماقي: إنها المنقذ، سأذكّر هبة بها، حتما ستسعد كثيرا، وستسرع إلى تعليقها، ستقضي الوقت الطويل تتأملها وتعدل من وضعيتها وتنقلها من مكان إلى آخر، كأن بينهما حبا عذريا أبديا، إنها وحدها قارب النجاة.

وطوانا الليل فنمنا، لم أكن أحسن حالا من هبة، انتابني شك مزلزل في كل ما أقمنا عليه حلمنا، هل كان ضروريا لحبنا أن يرى الطائر الغريب؟ هل يلزمنا أن نراه لنعرف حقيقة الطريق التي يجب أن نسلك؟ هدأت هبة ونامت، جمعت يدي تحت رأسي ورحت أتابع لهب القنديل يتراقص مكانه، لا أدري إن كانت رقصة قلق وحيرة هي، أم رقصة فرح وانتشاء، أم هما معا؟ ولأي شيء يفعل اللهب ذلك، احتفاء بالمكان أم احتفاء بنا، أم هو احتفاء بالوجود كله؟ أم هو قرف من كل شيء؟ وإذن ما الفرق بيننا وبين لهب مضطرب؟ ورأيت ذاتي لهبا، أدع مكاني وأحلق في جو الغرفة الضيقة الواسعة، أغازل لهب القنديل أراقصه.. أعانقه.. أقبله.. أذوب فيه.. نصير واحدا، ثم أعود إلى مكاني وقد انطفأتُ.

عدلت هبة من وضعية الوسادة، وقالت وقد دخل هزيع الليل الأخير:

-هل أنت مستيقظ؟

تململت في مكاني، تنحنحت، استدرت إليها، داعبت شعرها بأصابعي مهدهدا وقلت:

-نامي حبيبتي، لابد أن تنامي.

ندت منها شبه ابتسامة وقالت:

-أنام؟

صمتت لحظات وواصلت:

-صدقت، لن نستطيع الفرار من أقدارنا للأسف الشديد، جبال الغباء التي تراكمت عبر القرون لا يمكن اجتيازها بسهولة، لأننا جميعا مكبلون داخلها.

-فيم تفكرين حبيبتي؟

-أفكر في الرحيل.

وإلى أين نرحل؟ وهل قليل ما فعلنا؟ صرنا كزورق يمخر الصحراء، لن يرحل إلا إلى ذاته، كل الأزمنة صارت عندنا متشابهة، بطعم واحد، بلون واحد، برائحة واحدة، نتلمسها معا فلا نفرق بينها، الماضي هو المستقبل، وهما الحاضر، والجميع سديم.. سديم.

-لقد نسينا شيئا مهما.

قلت ذلك لأثير فضولها لكنها لم تجب، ظلت تنتظر مني أن أكمل، واصلت:

-هدية عمار العاشق.

لم يثرها ذلك أيضا، عكس ما اعتقدت تماما، صمتٌ احتراما لصمتها، قالت وهي تدفع بحة اعترضت حلقها، كأنما تطرد معها همها.

-وهل نعلقها للضياع؟

كانت الشمس قد استوت في كتف السماء، جمعنا أمتعتنا، اتفقنا على أن نقصد تيهرت، لقد تاقت إليها روحانا، وقد ظلت كل الوفود المارة بنا تتجه إليها، إن لم تنفجر فحتما هي بركان على وشك الانفجار.

انحدرنا نترجل من فوق الربوة، ظلت هبة تتلفت إلى البيت الذي نفخت فيه من روحها، كأنما تودعه لآخر مرة.

15

## لا حاكم إلا الله

كنا قريبا من بيت العجوز التي استضافتنا ذات مرة، اختفت الخيمة تماما، وقام مكانها بيت كبير من حجارة بيضاء، ذات انسجام وتناسق، يقوم في ركن من أعلاه مبنى صغير، فتحت فيه نوافذ عدة، كأنما هو برج، يمكن أن تراقب منه كل السهول والوديان المحيطة، ويمكن لأصحاب البيت إن داهمهم خطر ما أن يتسللوا عبر الوادي الصغير الذي يمر قريبا منه، وعبره إلى الغابة الكثيفة التي تمتد في هضاب متقاربة، تنتهي بجبال قاهرة، فهل يمكن أن يكون البرج نقطة مراقبة لدولة تيهرت لترصد أعدائها والمتربصين بها؟

كانت حركة الناس على أبواب المدينة كثيفة على غير عادتها، خلق كثير كان يغادرها زرافات ووحدانا، راجلين أو راكبين على بهائم مختلفة، جلست هبة على صخرة ملساء وراحت تراقب الحركة باهتمام، تبحث عن جواب لحيرتها، ورحت أتتبع صوت تغريد قريب منا، هل هو الطائر العجيب ظهر الآن؟ كان التغريد يصلني من أطلال بيت قديم، اندفعت نحوه أجس الأرض بقدمي، طفت به، ثم اقتحمته، انهار بابه بمجرد أن لمسته محدثا ضجة كبيرة، ثم انشطر على الأرض، أسرعت هبة نحوي، مددت رأسي داخل البيت الذي فقد سقفه من زمن طويل، واجهتني سحب بيضاء تعبث على أرجوحة الريح، ليس هناك أثر لأي شيء، غير أثار الأيام على الجدران، تلاشى التغريد كأن لم يكن، أحسست بحركة خلفي، التفت بهدوء، كانت هبة قد لحقت بي،

سألتْ عما أفعل بحركة من يدها دون أن تنطق، أجبت بيأس:

-كأني سمعت تغريدة غريبة، كنت أبحث عن الطائر العجيب.

ضحكت هبة وقالت:

-يظهر أنك صرت تتوهم، أما زلت تؤمن بالطائر العجيب؟

أمسكت بذراعها، ودفعتها معي باتجاه البيت، ما كدنا نلتف مندفعين إلى الباب، حتى واجهنا شابان يشهران سيفيهما، هزتنا المفاجأة، فجمدنا مكاننا نرفع أذرعنا عاليا، دفعانا إلى الداخل، كانت القاعة كبيرة فسيحة، تنفتح على غرف أخرى مجاورة تتصل بأبواب مختلفة، جلسنا على مرتفع من الأرض، يبدو أنه أقيم حديثا، وعليه وضعت زربية بديعة زينتها رسوم أمازيغية مختلفة، ذات ألوان بديعة يغلب عليها الأحمر، وفي الجدار المقابل فوق كرسي واسع علقت راية سوداء كتب عليها بالأبيض "لا حاكم إلا الله"، سألت محاولا أن أكون متماسكا:

-من أنتم؟

اندفعت هبة بغضب، كأنما تريد أن تجيبني عن سؤالي.

-أنتم قطاع طرق.

خرج كبيرهم من رحم الغرفة اليمنى، وقال:

-أجل نحن قطاع طرق على اللصوص والمجرمين، وقطاع طرق على الضالين التائهين عن منهج الله، نحن الأفلحيون، رفعنا السلاح ضد الوهابيين، وما زلنا نرفعه لنعيد الحكم الراشد، الحكم الذي أقامه أمامنا الأفلح بن عبد الوهاب، على نهج رسول الله وصاحبيه المرضيين، أبي بكر وعمر، لقد كان -رضي الله عنه- شامخا في ملكه، ابتنى القصور، واتخذ بابا من حديد، وبنى الجفان، وأطعم فيها أيام الجفاف... وعمرت معه الدنيا، وكثرت الأموال والمستغلات، وأتته الرفاق

والوفود من كل الأمصار والآفاق بأنواع التجارات، وتنافس الناس في البنيان، حتى ابتنى الناس القصور والضياع خارج المدينة، وأجروا الأنهار، ولن يهدأ لنا بال حتى نقيم في الناس نهجه القويم.

وسكت مطأطأ الرأس، وقد اكفهر وجهه، ودمعت عيناه، فأشاع في البيت صمتا مطبقا، وحزنا مركوما، ثم قال، دون أن يرفع رأسه:

-ولولا أننا في حزن، لأن في مثل هذا اليوم سُجن أعز أبنائه أبو اليقظان محمد لدى العباسيين لعنة الله عليهم أجمعين، كما لعن الأمويون من قبلهم، وقد اختطفوه أسيرا وهو يطوف بالكعبة في موسم الحج، لولا ذلك لكان لنا معكم موقف آخر.

وسكت، فرفع البقية أصواتهم بالتكبير، قال أحدهم:

-لن نطمئن حتى نزلزل عرش بني العباس لعنهم الله.

قال آخر:

-وإنّا لعلى يقين أن أبا اليقظان محمد، هو مهدي هذه الأمة، سيبعثه الله ليقيم على يديه دولة الحق والعدل.

رددت في نفسي، إنه مهدي آخر، لكل أمة مهديها، ولكل جماعة مخلصها، فمن يخلصنا نحن؟

ظلت هبة تلزم الصمت، تحدق فيّ كأنما تريد أن تحذرني من الرد عليهم، وطأطأت رأسي، كان أكبر همنا أن نخرج من هذا الكابوس الذي لم نحسب له حسابا.

قام زعيمهم، وأشار إلينا بشماله كي نقف، ثم أشار بحد سيفه يأمرنا بالانصراف، قمنا صامتين، وتسللنا من الباب كنسمة هواء، وصلنا صوته من داخل البيت.

-عودتكم إلى هذا المكان تعني موتكم، سنتهمكم بالتجسس.

وانحدرنا هرولة إلى عمق الوادي، كنت أنتظر أن يسكن سهم

ظهري، أو يخترقني ليسبق هرولتي، قد لا يتورع هؤلاء عن فعل أي شيء، يمكن أن يجدوا مبررا دينيا لكل أفعالهم، لقد انقسموا في الشرق أزارقة وصفرية وعجاردة، وهاهم ينقسمون هنا وهابيين وأفلاحة ونفوسيين، ولسنا ندري ما يحمله لنا المستقبل من انقسامات أخرى.

اطمأنت نفسي أخيرا حين احتضننا الوادي، لقد صرنا الآن بمنأى عن غدرهم، جثمت هبة على الحصباء وقد كادت أنفاسها تنقطع، جاورتها، أحسست بحرارة الحصباء فتمددت، كانت دافئة جدا، حلمت بأن ألج أعماقها، لتكون لي حضنا رحيما.

كان صدر هبة يعلو ويهبط وأنفاسها تتوالى، لقد اجتمع عليها الخوف والجري، وحمدت الله على أن شغلها ذلك، وإلا تهاطلت علي عتابا جارحا، ظلت نسائم عذاب تهب علينا، محملة بعبق الغابات المجاورة، وظلت الطيور تعبر السماء الصافية أسرابا كثيفة باتجاه الشمال، إنه فصل التزاوج، فصل الأفراح، هل يمكن أن يكون بنو الإنسان كذلك؟ هل رقينا على مدارج العقل، انحدار لنا على مدارك العنف؟ لمَ يقتل بعضنا بعضا؟ ولمَ نختلق الأسباب والمبررات لبراكين العنف والدمار؟

قلت لهبة، وأصابعي تفرك الحصباء الدافئة بحب:

-ماذا لو بتنا هنا؟

-لا مانع عندي، لقد صرنا أقرب إلى الذئاب.

قالتها بقلق، فرجت أصابعي وتركت الحصباء تتهاوى متزحلقة حيث كانت، وقلت:

-نحن أكثر منهم شراسة؟

وتناهى إلى أسماعنا عبر الوادي بكاء صغير، ثم تلته أقدام تقترب منا، تجلد جوف الوادي، بعد لحظات ظهر من بعيد رهط كأنه السيل

المندفع، بضع أسر، وبضع من دواب وأنعام، وحمولات ناء بها ظهر حمارين وجمل، ركب بعضهم على حمارين آخرين وبغل وثلاثة أحصنة، ونهبت أقدام البقية الأرض، اعتدلنا في جلستنا، ضممنا حقيبتينا إلى جدار الوادي، اجتازنا الجميع مكتفين بإلقاء السلام، توقف عندنا فارس، وقال:

-تقصدان تيهرت، المدينة على باب جهنم، الفتنة فيها ستلتهم الجميع.

وانطلق دون أن ينتظر ردنا.

-ولذلك يفرون.

قالت هبة وهي تقوم منتصبة كنخلة، حملت حقيبتي على ظهري، واصلت:

-لن ندخل المدينة، حتى نطمئن إلى ما يجري فيها.

-سنقصد "المعصومة" أولا، نبيت فيها، ومن هناك نقدر الأمور.

لا يمكن أن نستمر في السير داخل الوادي، يمكنه أن يكون مأوى لقطاع الطرق أيضا، وللمتعطشين إلى الدماء لسبب أو لآخر، كانت أسراب المغادرين الفارين تزداد كلما اقتربنا أكثر من المدينة، وكانت الحركة إليها باهتة تكاد تقتصر علينا، وعلى آخرين تفرقوا متباعدين راجلين وراكبين.

لاحت لنا المدينة من بعيد مدثرة بغاباتها المحيطة، وبخضرة صنعتها أفنان مدت أذرعها تكاد تصافح غيوما سوداء تراكمت متحدية صفير ريح معاندة، وراحت الشمس تنسحب إلى الأفق البعيد، وقد تجللها الحياء، مشيعة بأسراب من طيور مختلفة تعود إلى وكناتها، وارتفع نباح الكلاب وعواءهم كأنما هي تحذرنا من دخول المدينة.

أول من التقانا عند باب الأندلس هو عمار العاشق، كأنما كنا على موعد، كان منظره مؤلما مخيفا، بهتت صحته إلى حد كبير، وتشعث شعره وهندامه،هزني حاله حد البكاء، ارتمى في حضني، عانقته، أجهش يبكي:

-لقد قتلوها.. قتلوها، قتلها الأوغاد.

هدأت من روعه، وأنا أجره معي داخل المدينة، كان في كل وعيه، وهو يعيد علي حكاية ما فعلته نجلاء بنفسها، حين وجدوها في غرفتها محترقة، ولم يكن عمار ليطرح أي احتمال آخر، لقد كان على يقين أنها أحرقت نفسها لتهرب من جحيم الظلم المسلط عليها، إلى جنات معروشات مع الشهداء والنبيين، قلت وأنا أضغط على أصابعه:

-من أحب وعف ومات فهو في الجنة، ستلتقيان هناك ياعمار.

لزم عمار الصمت كأنما اطمأن لما قلته، وظل يسير إلى جنبي هادئا، هدأت الريح، وناءت السماء، وتسللت أصابع الغسق تسترق الضوء من عيون الشوارع والأزقة.

16

## عمار العاشق

كان مدخل "المعصومة" قد تغير كثيرا، اكتنفته الأشجار من كل جانب، أقيمت تحتها كراس خشبية، يظهر أنها تتخذ لراحة طالبي العلم، واتخذ لها باب عملاق، من خشب زخرف بالنحاس، ونقش في أعلاه على لوح مرمري الأبيات الآتية:

العلم أبقى لأهل العلم آثــاراً
يريك أشخاصهم رَوْحًا وإِبْكَــاراً
حيٌ وإنْ مات ذو علــم وذو ورعِ
ما مات عبدٌ قضى من ذاك أطوارا
وذو حياة على جهـــــل ومنقصةٍ
كميت قد ثوى في الرمس أَعصاراً

قلت لهبة وأنا أشير إلى الأبيات:

-بصمة عمار العاشق واضحة.

حركت رأسها وقالت:

-ليس في لوحة الخط فحسب، بل في كل الباب.

باغتنا بكر بن حماد، يخرج من المكتبة، مر بنا دون أن يحيينا، كان قد تغير كثيرا، افترسته الضراء في كل شبر من جسده، تمتمت هبة:

-إنه الشاعر، لقد عاد.

تمهل كأنما سمع كلامها، أسرعنا إليه، لم يزد على أن سلم علينا واستمر في طريقه.

دفعنا بوابة "المعصومة"الثقيلة فأنّت، واجه الصمتُ الثقيل عيوننا وهي تتسلل في الدهليز الكبير، تغير كبير شهدته المكتبة من داخلها، صارت تنفتح مباشرة على فسحة واسعة، تتوسطها نافورة كبيرة تحيط بها أشجار زينة مختلفة، وعشرات من الأبواب تنفتح على غرف، تتوسطها ساحة، بها منصة لعلها تتخذ منبرا للخطابة، عانقت عيوننا النوافذ العلوية، وصلت آذاننا أقدام تنحدر على الدرجات، أشرق عميد المكتبة علينا بفرح طفولي، قال:

-كم اشتقت إليكما.

وراح يدعونا إلى مكتبه، الذي صار أوسع، وقد فتحت فيه نافذتان، وتكومت مخطوطات مختلفة الأحجام فيما تبقى من فضائه، صب لنا شايا وهو يقول:

-شهدت "المعصومة" ترميما كبيرا، هي الآن أقدر على استيعاب الأكثر، لقد ظلت الكتب تنهال علينا من الأندلس، ومن مصر والشام والعراق حتى صارت لشدة تراكمها مرتعا للقوارض والحشرات، كل شيء تم تنظيمه الآن، سيعود الطلبة إليها نهاية هذا الأسبوع، هيأنا لهم كثيرا من الغرف للإقامة، وحمامات، وغرفا للاستجمام، واستقدمنا عشرات النساخ المهرة، سيكون للمكتبة شأن آخر.

كان متحمسا جدا، كأنما ولد من جديد مع المكتبة، رشفت من كأسي وسألت:

-ولكننا سمعنا في الطريق ونحن قادمان ما أخافنا.

تعكر مزاج العميد وقال بصوت خافت:

-للأسف نعم، صحيح ما سمعتما.

ثم قام من مكانه، فتح باب مكتبه وقال:

-لا أريد أن أعكر صفو مزاجكما، أعلم أثر السفر جيدا، فلتستريحا الآن.

أسرعت أسأله عن الشاعر، قال وهو يخطو خارج المكتب:

-لقد فقد المسكين ابنه في الطريق، بعد أن عاد خائبا من رحلته إلى العراق والشام ومصر والقيروان، والتقى بالخليفة المعتصم بالله، وأبي تمام، ودِعبل الخزاعي، وعلي بن الجهم، لكنه لم ير إلا أمواجا من الفرق والفتن.

قادنا إلى غرفة خاصة بكبار الضيوف، وأشار إلى حمام قريب، ودعنا واندفع خارجا، لم يكن صعبا أن يلاحظ الرائي علينا وعثاء السفر، نشطنا إلى الحمام، كانت الغرفة مفروشة بالمرمر، فتحت في أعلاها ثلاث فتحات دائرية، وعند كل جدار صففت كراس حجرية صغيرة، منحوتة بإتقان شديد، بينها أحواض يتدفق إليها الماء الساخن والبارد من خارجها، أخذنا حمامنا بسرعة وعدنا إلى غرفتنا، وحلم النوم يعانق أجفاننا، غير أن العميد فاجأنا وهو يدخل علينا بكرمه المعتاد، ومعه قنينة عطر، ظل يرجونا أن نحتفظ بها أبدا ذكرى منه.

سألت هبة، وهو يغلق الباب خلفه.

-لم يمنحنا مثل ذلك من قبل؟لم يصر على أن نحتفظ بها؟

مططت شفتي، دون أن أجيب، وانهمكت في التهام الطعام الذي وضع أمامي، كان دافئا لذيذا، يمكن أن أكمله وحدي، ونسيت هبة سؤالها وحيرتها، وانكبت معي على الطعام، ولم ندر كيف نمنا.

لعله الهزيع الأخير، حين تتالت الضربات على الباب الخارجي، كانت مصحوبة بصياح وبكاء واستجداء يذبح القلب، أسرعت خارجا، كان العميد قد سبقني إلى الباب وهو يقول:

-إنه عمار العاشق.

ظل العميد يردد دون جدوى.

-اهدأ عمار، اهدأ.

كان عمار ينتحب، دون أن يفارق ظهره كيس أبيض، جره العميد

إلى الداخل، اندفعت أحمل عنه حمولته فنهرني بشدة، استوى جالسا في مكتب العميد، واضعا الكيس في حضنه، سأله العميد:

-كيف حال نجلاء؟

جمع ذراعيه على الكيس وظلت عيناه تدوران في الفراغ، صمت لحظات كأنما ينتظر وحيا، وقال:

كل الوجود نجلاء

الشمس والبدر والسماء

وكل النجوم لها..

من نجلائي بهاء.

صفق العميد معجبا، وهو يتابع حركات عمار، وظللت أتأمله، أحسسته يكابد شوقا رهيبا، ما كنت أتصور أن يفعل به العشق كل هذا، آخر مرة رأيته فيها، لم يكن قد انحدر إلى هذا الوضع، كان حسن الهندام، حسن الملامح، في لحيته عناية كبيرة، وقد فاح عطره، الذي أخبرني أنه يختاره من أشهر العطارين، بدت ثيابه الآن متسخة، وقد تهدل شعره ولحيته، التي أسرع الشيب إليها، وبدا على وجهه شحوب صارخ، أسرع إلى خيالي مجانين الحب، هل يمكن للحب أن يفعل هذا؟

صب العميد كأسا من الشاي وقدمه إليه، راح يرتشفه على مهل في غير مبالاة، دقق النظر في العميد لحظات، كأنما ظل يبحث عما يريد أن يقول، واندفع أخيرا بفرح صبياني غامر:

-لقد عادت نجلاء، عادت، نعم عادت.

حملق العميد إليه دهشة، ثم انبسطت أساريره وهو يقول:

-ادع لها بالرحمة ياعمار، نجلاء ماتت، إنها شهيدة الحب، تنتظرك في جنة الخلد.

وقف عمار كأنما يستعد لتحد كبير، دون أن يترك الكيس.

-لا لا، بل عادت عادت، أنت لا تصدقني، لا تصدقني، إنها معي معي.

وراح يرقص في مكانه مزهوا، ثم واصل:

-أنت لا تصدقني، هي معي، سآخذها إلى الطبيب، ستعود إلى الحياة، سنتزوج، نعم سنتزوج.

واندفع العميد واقفا، وقد تغيرت ملامحه كلية، ارتسمت على وجهه لوحة من الدهشة والحزن، وقال بصوت خافت كأنما هو تمتمة.

-لا تقل إنك...

عاد عمار العاشق يلزم مكانه، وقد بدا عليه فرح وخوف، وهو يحتضن الكيس بكلتا يديه.

-أنا.. لم.. أردت.. هي.. أنا.. أحبها.

واندفع العميد يفتك منه الكيس، كانت دهشته عظيمة وهو يفتحه، ويصيح:

-أخرجتها من القبر يا أحمق، تبا لك، تبا لك.

-أكد لي الحكيم أن بإمكانه أن يعيدها إلى الحياة.

في لحظات كنا على أتم الاستعداد نحمل فأسا ومجرفة، ونغادر المكتبة، كان العميد يضع الجثة على ظهره، ويدفع أمامه عمار العاشق، وكنت أحمل الآلتين، لحقت بنا هبة، حملت عني المجرفة وانطلقنا.

وصلنا إلى المقبرة عبر طرق ملتوية، كان العميد حريصا على ألا يرانا أحد، واستطعنا الوصول في أمان، رغم بعض الكلاب التي طاردتنا هنا وهناك، اندفع عمار العاشق إلى القبر مباشرة، رغم الليل وكثرة القبور، كان يعرف مكانه جيدا كأنما يشتمّ رائحته.

تعاونا جميعا على إعادة الجثة إلى القبر، وتسويته بما يليق بحرمة صاحبته، وقفلنا راجعين، تاركين عمار العاشق داخل المقبرة، أخبرنا العميد في الطريق عن الفاجعة التي ألمت بنجلاء حين أقدمت على

حرق نفسها احتجاجا على تزويجها من أحد أغنياء المدينة، كانت رحمها الله مولعة بعمار، عاشقة له، وكان الناس قد تداولوا قصتهما، مما أساء لأهلها، وقرر إخوتها تزويجها رغما عنها، وحين ضاقت بها السبل فعلت فعلتها، فيما هام عمار على وجهه، ليصل إلى ما وصل إليه.

دخلنا المكتبة مع آذان الفجر، اتجهنا مباشرة إلى غرفتنا قالت هبة ونحن نتخفف من ملابسنا:

-لو مت أنا، هل يقع لك ما وقع لعمار؟ وهل تسعى كي تعيدني إلى الحياة كما سعى هو؟

نظرت إليها بطرف باسما، وقلت:

-إن أحرقت نفسك من أجلي كما فعلت نجلاء فحتما سأفعل.

اندفعت نحوي بغضب، تضربني على كتفي، وهي تقول:

-وذاك حلمك، سأبقى معك إلى آخر العمر.

ضممتها إلي، أسندت رأسها على كتفي، وغرقت في أحلامها كما تعودت دوما.

17

## عواصف الفتنة

عند الصباح بلغنا وفاة الشاعر بكر بن حماد، راح العميد يستعجلني لحضور جنازته، عجلنا إلى مقبرة المدينة الواقعة على طريق باب الصفا، حين بلغناها كانت مراسم الدفن قد انتهت، لكن معركة كلامية قد شبت بعدها مباشرة، كان أحد الشباب يحمل بيمناه كتابا يقرأ منه قصيدة الشاعر في ذم عبد الرحمن بن ملجم قاتل الإمام علي، ورغم أن كثيرا ممن حضر لم يكن ليهتم بخطبته اللاعنة المحرضة، إلا أن فتنة دموية كادت تشب بينه وبين أقارب الشاعر، وسريعا انطلقنا نغادر المقبرة البائسة.

لا أحد يستطيع إحصاء عدد الفرق والنحل التي انتشرت في تيهرت، خلاف جزئي بسيط في عبادة أو اعتقاد، أو حتى الشيخ يمكن أن يولد فرقة جديدة، تقيم لها مسجدا ومنبرا للصراع والجدال، وتؤلف لذلك كتبا، وتدخل في مهاترات ومجادلات كبيرة لا نهاية لها مع كل الطوائف والفرق، ويمكن أن تذهب إلى حد تكفير غيرها وإراقة دمهم، ورغم أن ساحة الجدال التي كانت تقام فيها المناظرات أمام المسجد الجامع قد أغلقت بأمر من الإمام يوسف، خشية انتشار الفتن، واشتداد أوارها، فإن ذلك لم يضعف من عزيمة الأطراف، فاتخذوا لهم مساحات بديلة في ضواحي المدينة، ووضعوا لها قوانين ضابطة، غير أن عقالها كثيرا ما ينفلت أمام هياج الأنصار، وتتحول المناظرة إلى معركة قد تراق فيها الدماء وتزهق الأرواح.

كان الجو غائما، يبشر بأمطار غزيرة، وكانت الرياح تراقص رؤوس الأشجار، تتلذذ بتعريتها إلى حد كشف عورتها، جلسنا طويلا على الكراسي الخشبية أمام "المعصومة"، كانت هبة ترغب في الاعتكاف داخل المكتبة لتطلع على جديدها، أعرف جيدا أن الطائر العجيب مازال يشغلها، وإن حاولت أن تخفي ذلك، وكان في نفسي فضول كبير لمعرفة ما يقع داخل المدينة، وسر فرار الناس منها، خرج إلينا العميد، وكله حماس لمرافقتنا، كان قد لبس أحلى ثيابه، فبدا أصغر سنا، اعتذرت هبة بوهن اعتراها، ونشطنا نغادر المكان، تكاثر سيل الناس مندفعين إلى خارج المدينة، بعض الضعاف كانوا يحتمون بالمسجد الجامع، اقترب منا شيخ يتكئ على عكازه بيد مرتجفة، سألني بصوت واهن:

-هل صحيح أن أبا عبد الله الشيعي يزحف بجيشه على المدينة؟

لم أجد جوابا، ساعدته على الاقتراب من المسجد وأنا أقول:

-لن يكون إلا الخير، هذه العامرة لن يهزمها أحد.

قال العميد:

-يجب أن نسرع.

غير أن سيلا من رجال ونساء وأطفال سد علينا الطريق وهم يصيحون:

-إنهم يتقاتلون، إنهم يتقاتلون.

واندفعنا عكس التيار، نصفع بأقدامنا الطريق الذي يمتد مرتفعا إلى أعلى المدينة، كأنما نخوض حربا مع العقبة الكأداء، ومع الريح التي عصفت أشد، بدأ بعض المسلحين يندفعون معنا باتجاه واحد، دفع بي أحدهم حتى ارتطمت بشجرة يتيمة ملتصقة بجدار، خطا خطوات ثم عاد إلي مشهرا سيفه في نحري، يسألني وقد انتفخت أوداجه:

-وأنت، مع من؟

واضطربت الكلمات في فمي، أبعده العميد عني وهو يقول:

-له حق الضيافة، ليس من المروءة الاعتداء على الضيف.

تركني، وراح يلحق برفاقه، قال العميد وقد اندفعنا نواصل المسير.

-كن حذرا، الوضع ينبئ عن فتنة لا تذر شيئا.

حين بلغنا مقر الخلافة، وجدنا حشدا كبيرا يلتف حول الباب، بعضهم تسلق السور بسيوفه وسهامه، أحدهم كان على فرس شهباء يخطب في الجمع بحماس شديد، حتى تطاير لعابه على الحاضرين، مشكلا زبدا في ثنيتي شفتيه، قال العميد:

-هذا ابن أخ الخليفة، وشقيقه هو من يتسلق الجدار عند الباب، إنها الفتنة يا صديقي.

وفجأة اقتحم الثائرون البوابة التي فتحت لهم من الداخل، وأشعلوا فيها النار، فملأ الدخان الفضاء، وإن هي إلا لحظات حتى كان الخليفة يوسف بن محمد بن أفلح يقاد ذليلا خارج السور، استغل أحد أبناء أخيه فرصة تفرق الناس عنه، وفصل رأسه عن جسده بضربة مجنونة، تعالت الصيحات بالتكبير، قابلها من داخل السور بكاء شديد وعويل ذابح، حمل الرأس على رمح كبير، وسحبت الجثة من الذراعين، وانطلق الجميع منحدرين إلى الساحة الكبرى.

صرت أشبه بزهرة ذابلة تتقاذفها الأرجل، تدوسها دون مبالاة، إنه الانحدار إلى الهاوية، ظللت أخبط على غير هدى، أتخيل جادة الطريق وقد تغشاها الغبش، وظل العميد صامتا كأنما يتجرع سما زعافا، وقفت عند بوابة عمار العاشق، كان الفناء قد أسرع إلى مصراعيها، وظهرت الأغصان من أعلى صفراء يابسة، وقد امتص رحيقها الإهمال، أطل عمار العاشق علي، في عينيه حزن عميق،

وعلى كل ملامحه تفجرت مأساة كالحة، وقد تهدل شعره الأشعث في غير مبالاة، وعبثت الفوضى بلحيته، أحسست قلبي ينذبح، وقد تخيلت مأساة عبقرية الإبداع التي بالداخل.

بعد صلاة العصر اجتمع خلق كبير في المسجد الجامع، تقدم اليقظان إلى المنبر، حمد الله وأثنى عليه، وصلى وسلم على نبيه الكريم، وعلى صحابته الغر الميامين، وخص أبابكر وعمر، وتبرأ من عثمان وعلي ولعن معاوية وآله، ولعن بني العباس، وأثنى على كل الذين حملوه ثقل الأمانة، أمانة قيادة الأمة على منهج الله ورسوله والسلف الصالح، وراح يزرع وعودا بالعدالة والمساواة بين الجميع.

وتعالت الأصوات داخل المسجد تنادي بالاقتصاص من القتلة، وأخرى ترفضه إماما عليهم، وارتطمت الأصوات فلم يعد يفهم منها شيء، وامتدت الأيادي متشاجرة، ووقعت معركة، فتم تهريب الإمام إلى المقر، ووقف ابناه يقودان الأنصار ضد المعارضين، الذين تم إخماد ثورتهم سريعا.

كنا داخل المكتبة، نتابع المشهد عبر شرفة كبيرة، لم يكف العميد عن شرح أسباب الصراع وخلفياته، وقد تغشتني وهبة سحائب حزن شديد، قالت هبة بضجر:

-لو لم يطوح بنا الطائر كل هذه الآفاق لما وصلنا إلى كل هذه العفونة.

-إنه قدر الله.

قالها العميد كأنما يمهد بها لكلام آخر، ثم واصل:

-عندي يقين تام بأن الناس لن تسكت عن هذه الجريمة، الإباضيون لا يسكتون عن منكر، وذلك سيعقد الأمور أكثر.

-ماذا يمكن أن يقع؟

سألت ورحت أتابع ملامح العميد وقد بدا حزينا كئيبا محبطا، ظل برهة يعبث بقلم اليراع بين أصابعه، يديره أحيانا، ويغرق في الزخارف الملونة التي تزينه أحيانا أخرى، حين رفع رأسه بدت في عينيه دموع حائرة مضطربة، قال:

-لقد سلخت معظم عمري في إقامة هذا الصرح، وفيه لكل طائفة سيف يشهره في وجه غيره، بل ولا أستبعد أن تأتي حماقة أحدهم عليها جميعا.

في المساء وصلتنا أنباء عن تقدم جيوش أبي عبد الله الشيعي من الشرق، وتحرك الأدارسة من الغرب، واستعداد قوي للوهابية، بقيادة أبي البنين المتيجي الذي صار أميرا للمؤمنين بعد أن غدر بسيده أبي علي محمد بن عبد السميع بن السبط بن علي البوني وبعدوه أبي عبد الله علي البكّاء.

قبل أن نفترق للنوم، سلمنا العميد قلمه المقدس، قلما من يراع، يمتد طويلا مجوفا، تحيطه منمنمات وخطوط بألوان مختلفة، ويمتد حادا في طرفيه معا، عبقا برائحة الحبر، راقصا بفسيفساء الألوان، حين سلمه لي لم يرخ زمامه سريعا كأنما يعطي قلبه، وقرأت في عينيه وعلى كل ملامحه ألما شديدا، قال:

-هذا أعز ما أملك.

واغرورقت عيناه بالدموع، قلت وأنا أهم بإعادته إليه:

-احتفظ به.

دفع يدي قائلا:

-في ثقافتنا الهدية لا ترد، أنتما أكثر أمانا، حافظا عليه.

تأملته، وسلمته لهبة، احتضنته بين أصابعها كما تحتضن كتابا مقدسا، قالت وهي تسبح بعينيها في تفاصيله:

-إنها عبقرية عمار العاشق.

- نعم صنعه لي خصيصا.

أعاده إليه من يد هبة، سواه بين شفتيه، وانطلقت أنغام عذبة ما سمعت لها مثيلا، كان النغم حزينا، جلل المكان كله مأساة، أطرقنا صامتين، كأنما كان يعزف لحن الوداع الأخير.

18

## الهدية المقدسة

نشطنا طيلة شهرين في تحصين المكتبة، أعلينا بعض أسوارها، وحصنا أبوابها ونوافذها، واستنفرنا العشرات من النساخ لترميم ما تهرأ من الكتب، أو إعادة نسخ ما رأيناه مهما، خاصة في علم اللغة والطبيعيات والرياضيات والفلسفة، وكان العميد أشبه ما يكون بقائد جيش في معركة فاصلة، لا يكاد ينام حتى يستيقظ، ولا يكاد يستريح حتى يفزع، لا يأمر ويوجه فحسب، بل ويعمل أيضا، كنت أنا وهبة منخرطين كلية في العمل مع جميع المتطوعين، من بنائين وحدادين ونجارين ومرممين ونساخين، ورغم كل الأنباء السيئة التي كانت تصلنا من داخل المدينة وخارجها إلا أننا كنا أشد غبطة بما أنجزنا، وفي طليعتنا عمار العاشق، الذي فجر عبقريته الإبداعية بشكل يثير الدهشة، متحديا كل آلامه وكل خيباته، قاهرا كل ما كان يتغشاه من إجهاد واكتئاب، وكنا جميعا نقف طويلا منبهرين بما تبدع أنامله، لقد كانت يده تراقص الكلمات كأنما تراقص حسناء،وتعزف على أوتار الحروف فتنتشي قلوبنا ابتهاجا بما نرى، حتى العميد كان يوزع علينا ابتسامات التشجيع يردم بها أخاديد ظلت المأساة تحفرها على ملامحه، مر قريبا منا يثبت رفوفا في مكانها، حدقت فيه هبة مليا، ثم راحت تملأ الرف كتبا حديثة وهي تقول لي:

-هل تأكدت مما قلت لك، لا تريد المأساة أن تفارقه.

رفعت فيه بصري، كانت عيناه تقطران حزنا، كأنما ينتظر حكما

بالإعدام، لا بد أن نساعده لتجاوز محنته، التي هي محنتنا جميعا، ليبقى هذا الصرح قائما يجب أن يظل العميد قائما أيضا.

عند الغداء كنت إلى جانبه، اكتفى بلقيمات تناولها على عجل، قلت وأنا أكتفي أيضا بما أكلت.

-خطرت ببالي فكرة قد تنقذ ما يمكن إنقاذه.

رفع فيّ عينيه دون أن يرد، واصلت:

-نهرّب ما نستطيع إلى مدن أخرى.

قلب شفتيه كاليائس وقال:

-ليس في بلاد المغرب أمان، ماهمدت فتنة إلا واستعد الناس لأخرى، كل الطوائف التي فشلت في الشرق، عششت هنا وفرّخت.

ونهض عائدا إلى عمله، أدركُ أن هذه الأطنان من الكتب تسري في شرايينه، يعرف كل تفاصيلها، يفرح لفرحها،يبكي لبكاها، يحملها كما يحمل العصافير، يلثمها كالأطفال، يشتم عبقها كالأزهار.

بعد أيام أقمنا لنا بيتا للطوارئ، تخيرنا له سفح جبل قريب، يمكن أن نلجأ إليه حين تداهم الجيوش الغازية المدينة، وتلتهم ألسنة الفتنة كل حي فيها، لم يكن الجبل شامخا، لكن صخوره العملاقة كانت تبعث فينا الأمان، نرتقيها كلما زرناه، كأنما نستمد منها القوة، ظل الصمت يجللنا ونحن نعود هذا المساء من تفقد البيت، إحساس مشترك بقرب الفاجعة حل علينا جميعا، في فسحة "المعصومة" اجتمعنا على كؤوس الشاي، لا يسمع إلا صوت ارتشافه، أو صوت أقدام تمضي في ذهاب ورواح، فجأة قامت هبة، وهي ترشف آخر ما تبقى في الكأس، وقالت:

-وجدتها يا جماعة، والله وجدتها، لقد أوحت بها إلي الصخور العملاقة.

وما كادت تكمل شرح فكرتها حتى أشرق وجه العميد، وهو يقول:

-حتى لو تركناها كنزا لأجيال تأتي بعد قرون.

عند الفجر كنا ننقل وسائل النحت والحفر، قضى العميد وقتا طويلا يتأمل المكان، ويختبر الصخور، ينتقل من واحدة لأخرى، يختار الأضخم والألين، يجسها بيديه، ويختبرها بفأسه، وحين استقر اختياره على واحدة، راح يمد بصره ليعرف أهمية موقعها وقال:

-هنا على بركة الله ندس كنزنا الثمين.

وبحماس شديد اندفعنا إلى العمل، عمدت مع هبة إلى تسوية الأرضية المحيطة بالصخرة، في حين انهمك العميد وعمار العاشق، وشابان اختارهما العميد من طلبة "المعصومة" في عملية النحت بالتناوب، كان تحدي الصخرة كبيرا، يؤكده صدى الضربات التي راحت الجبال المحيطة ترددها، وكان تحدي الرجال أكبر، يوقع عليه لمعانٌ كان في العيون، وسيولُ العرق التي اندفعت بسرعة من الوجوه حتى بللت الثياب.

بعد أيام كان التعب قد أخذ منا الكثير من الجهد، وتسللت سهام الإرهاق تشك عضلاتنا ومفاصلنا،لكن سعادتنا كانت غامرة، ورحم الصخرة ينفتح عن آخره، فيضمنا جميعا، وقفنا أمامها وقد تغشانا فرح طفولي بريء، رقصت به العيون، وخفقت به القلوب، كل شيء يمكن أن ينهزم أمام إرادة الإنسان، رفع العميد عينيه في هبة وقال:

-شكرا، كانت فكرة عبقرية.

نقل بصره بيننا جميعا،وواصل:

-شكرا لكم جميعا لما قدمتموه "للمعصومة".

لم يَردّ أحد، كان الإنجاز بكل هذه السرعة أكبر من كل الكلمات، كان إنجازا لا يضاهيه إلا صدقنا وإخلاصنا.

استسلمنا للنوم قبل المغرب، كنا أشبه تماما بالأموات، ولم نستيقظ

إلا والشمس تتسلل عبر نوافذ "المعصومة"حارقة، أول ما وصل أذني دندنة العميد، وحركات رجليه، يظهر أن الرجل لم ينم، قضى ليله كله أو شطرا منه ينتقي ما يراه مناسبا، يكوّمه ثم يقوم بوضعه في صناديق أعدت لذلك، ولم أر وجهه منبسطا كما رأيته اليوم، وقد انهزمت أمامه كل جحافل الخوف والقلق.

مساء ذاك اليوم، كان يقوم في رحم الصخرة، ونقف نحن الثلاثة خارجها، نسلمه ما يطلب من كتب، كان يتسلمها منا بأناة، ثم يضعها برهبة،كأنما ينقل شيئا مقدسا، كأنما يضع جثة نبي في قبره الأبدي، وماكاد الكنز يتوارى في مكمنه الآمن، حتى مد يده إلى قطعة جلد كبيرة كتب عليها "مكتبة المعصومة" غطى بها الكتب، واندفعنا في احتفال كبير نبني على الفتحة جدارا سميكا، وعليه أقمنا بيتنا الجديد، كنت أتأمل هذا الإنجاز العظيم بعين الدهشة والغبطة، وأنا أقول للعميد مازحا:

-من اليوم سأسميك "ذو القرنين"، وفعلك هذا هو الذي سبق إليه القرآن، "وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنْ الْجِبَال بُيُوتًا آمِنِينَ".

كان الليل مقمرا، استرحنا أمام خيمتين نصبهما طلبة المعصومة، ونشطوا يشعلون النيران، ويعدون الطعام، لقد قرر العميد، أن يقيم ها هنا احتفالا على شرف المساهمين في الإنجاز، وبقدر ما كانت المأساة ذابحة، كانت سحائب رضى تتغشى أفئدتنا، وكنا أنا وهبة نلمح من حين لآخر طيف القطب يتغشى السماء حتى يكاد يملأها، كأنما يبارك فعلنا، لكنه لم يدنُ، لم يتدلَّ، كما رأيناه من قبل، إن الأرض تستعد أن تسكر بنبيذ الدم، لاشك أنه يسمع شهيقها، يسمع نحيبها، وما أبعد ذاك عن طهره!

منذ تلك الليلة اعتكفنا في "المعصومة" لا نكاد نبرحها، لم يكن ذو القرنين إلا راهبا متبتلا، أبعد عمامته البيضاء، وسمح لشعره الأسود بأن

يتهدل على كتفيه دون عناية، يظهر وسط رأسه بياض مفرقه، ويلمع في شعره الشيب كما تلمع النجوم في الليالي الحالكة، يظل يتنقل في كل زاوية، يتمسح الرفوف والأشجار، ويوزع ابتسامات المحبة على الطلبة والعمال، ولم نكن نحن نهتم بكل ما يقع خارج "المعصومة" من مؤامرات وفتن، حتى لو وصلنا صداها عبر صوت الأئمة من المسجد الجامع، حيث صار لكل طائفة مكان للصلاة، أو عبر أصوات المتخاصمين في الساحة العامة، غير أن أنباء وصول جيش أبي عبد الله الشيعي عكر حياتنا كلية.

بات مؤكدا أن الجيش الغازي يرابط عند أسوار المدينة، وأن دخولها بات قضية أيام لا غير، ووصلت شائعات كثيرة عن قوته رجالا وعتادا، وعن تصميمه على إبادة الإباضيين جميعا، مما بث الهلع الشديد في أوساط السكان، الذين لم تكن عندهم حماسة أبدا لنصرة حاكم لا يؤمنون بشرعيته، حاكم قتل أخاه ليستولي على السلطة، ورغم ذلك فإن آلافا من المقاتلين قد تخندقوا حول المدينة، يدفعهم إيمانهم العميق بما يعتقدون لتقديم أرواحهم رخيصة، في حين غادرها الآلاف أيضا، واحتمى المئات من الضعفاء بالمساجد حتى غصت بهم.

مع الفجر كان الاقتحام والالتحام، وسقط الآلاف من القتلى، وجرت الدماء سواقي حتى اصطبغت الأرض والجدران بلون الشفق، وترامت عشرات الجثث هنا وهناك عبر طرقات المدينة المنهزمة، لقد دك الجيش الغاصب كل الحصون، وأباد كل المقاومين، لم نكن نعد شيئا للمقاومة، التي كنا ندرك سلفا أن لا معنى لها، كنا ونحن نتلقى صرخات المتقاتلين، ونواح المتألمين نرفع أكف الضراعة أن تحدث المعجزة، اعتلى كل الطلبة سطح "المعصومة" يتطلعون إلى الجديد، واعتكفت هبة في المحراب تصلي وتدعو الله، ولزمتُ العميد وعمار العاشق، ننتقل بين

الدهليز والغرف والسطح، ونقف طويلا عند بوابتها، لا ننبس بكلمة، وحدها أنفاسنا تتردد في حرقة، وعيوننا تدور في حيرة.

عند المساء بدأت أصوات المتقاتلين تخفت شيئا فشيئا، وراح نواح المنهزمين يغدو أنات أليمة، وراحت سنابك الخيل تقترب منا عبر الطريق الكبير المؤدي إلى الساحة الكبرى، ومعه كانت تصلنا هتافات النصر، كنا عند البوابة حين وصلت طليعة المهاجمين، وفي مقدمتهم أبو عبد الله الشيعي فوق فرسه، واكتظت الساحة بالمئات يهتفون جميعا.

-لبيك يا إمام، لبيك يا حسين

الثأر الثأر لدم الإمام

الثأر الثأر لدم الحسين.

كان ذو القرنين يقف في فتحة الباب شامخ الأنف، في أزهي ما يملك من ثياب، عن شماله وقف عمار العاشق، وقد بدا متعبا، في عينيه لمعان غريب، وعن يمينه وقفت أنا فهبة، وخلفنا على امتداد الرواق وقف عشرات الطلبة والنساخ، سأل أبو عبد الله الشيعي، دون أن يخص أحدنا:

-من المسؤول عن المكتبة؟

شمخ ذو القرنين بأنفه أكثر وقال بثبات:

-أنا.

-سنحرقها، فهل تمانع؟

-طبعا أمانع، أنا حارس العلم الأمين.

سأل أبو عبد الله فرد ذو القرنين بثبات وشجاعة أكثر، ثم واصل:

-أيها القائد، لا دخل للمعرفة في خلافاتكم وصراعاتكم، وأنا لست معكم كما لست معهم أيضا، أنا حافظ لعلم الجميع مهما اختلفوا.

تقدم أبو عبد الله الشيعي بحصانه الذي ظل يصهل معلنا تعطشه

إلى الدم، وقال:

-قطعنا آلاف الأميال، لننصر الفرقة الناجية، ونقيم مذهبها في الأرض، مذهب الله ورسوله وآل بيته عليهم السلام، ولن نعود، فإما نصر مؤزر، أو إلى جنة عرضها السماوات والأرض بجوار أئمتنا وشهدائنا.

وهم ذو القرنين بأن ينطق، لكن سهما انطلق، تلقاه عمار العاشق بصدره فأرداه، وانفجر دمه فوارا،انكب عليه ذو القرنين وما كاد حتى اخترق سهم آخر رقبته، فخر صريعا، وتعالت هتافات النصر مرة أخرى، لوى القائد حصانه، وهو يصيح في جنوده.

-انتقوا ما يفيدنا من كتب الرياضيات والطبيعيات والطب، وأحرقوا ما تبقى.

واندفع الجنود يدوسون الجميع، ويخوضون داخل"المعصومة" بأحصنتهم.

حين أشرفنا على بيتنا الذي أقمناه مع"ذو القرنين"، كانت ألسنة النيران التي اندلعت في المكتبة تعانق الفضاء، وكان الدخان قد امتد كثعابين من كل مكان في المدينة، سارقا منها هواءها النقي، وحين أسدل الظلام ستائره على المشهد الفظيع، كان المئات ممن بقي على قيد الحياة، يزحفون باتجاه الفج حيث أقمنا، وسريعا انتشرت الخيام، تلملم آلام من تبقى، وتواسي جراحاتهم وخيباتهم، وكان الظلام يتسمع حكاياتهم عن فظاعة المجازر التي ارتكبت، وعن عشرات الرؤوس التي قطعت وأرسلت هدية إلى شقيق أبي عبد الله الشيعي بالقيروان.

كانت هبة تنكمش قريبا مني، لا تكف عيناها عن البكاء، وكنت أجاريها وأنا أتذكر الشهيدين، العاشق والعميد، وهما يرتفعان معا مضرجين بدمائهما.

19

## الناي والطائر

مازال قلبي يرتجف من هول ما رأى، لا يمكن لأكوام الجثث وأنهار الدم أن تمحى من ذاكرتي، صارت تصيبني بهستيريا قاتلة، صرت أحن إلى البكاء، إلى العويل، بل صرت أحن إلى الدم أيضا، كلما أصرت الصور على الحضور في شاشة خيالي فررت إلى القراءة، وقد أنسى أحيانا، لكن صورة عمار العاشق وهو يقدم نفسه قربانا، فيفجر السهم قلبه الذي طالما ملأ القلوب حبا وإبداعا، لا يمكن أن يمحوها الزمان، ستظل نغمات عزفه تصلني عبر كل موسيقى الكون، عبر خرير المياه، وتغريد الطيور، وضحكات الأطفال، ستظل همسات أنامله الدقيقة ترقم في كل مكان لوحات عبقرية، أراها في كل إبداع جميل، وستظل صورة "ذو القرنين" والسهم يخترق أعلى رقبته، فيخر صريعا مضرجا بدمائه كضبي بري متمرد،تلح في الحضور داخل خيالي مهما بعد بي الزمن، تزداد بمرور السنوات والعقود وضوحا ونصاعة، وقفته الشجاعة، تحديه للمهاجمين، إيمانه بوجوب الدفاع عن عرشه، ثباته وقت فرار الجميع، جهده الدؤوب في إنقاذ ما يستطيع، لأنت الشهيد حقا أيها العملاق.

ومن نحن بعدك؟ وها نحن ننسحب من حراسة الكنز الذي تركت، لم نزد على أن أوصينا الحارس خيرا بالبيت، لم نشأ أن نخبره بما وراء الجدار خشية أن يأخذه طمع ما فينبش عليه، كنا نريده أن يبقى للأجيال اللاحقة كما كان يحلم ذو القرنين.

كان حلمي الأوحد أن أعود إلى تيهرت، لعل الأمور ستستقر بها مجددا، أنا لا يهمني من يحكم، ولا مذهبه واعتقاده، المهم أن يعيد "المعصومة" كما كانت، وأنا مستعد لأن أقضي عمري خادما لها، سعادتي أن أكون بين الكتب، رائحتها عبق، وحفيف أوراقها سمفونية خالدة، ولكن للأسف يا صديقي النبيل، أيها العميد الكريم، ها نحن نفر، ولست أدري أدكت "المعصومة" أم ما زالت شاهقة، ولست أدري، أتعمر من جديد أم لا، ولست أدري أتحوي من كل علوم البشر، أم تكون حكرا على ثقافة طائفة دون أخرى، بل لست أدرى أيباد كل شيء في المدينة، حتى الجدران والقبور، أم يعاد تعميرها من جديد؟

كانت هبة تحث السير يدفعها خوفها مما رأت، وحلمها ببلوغ بيتنا الذي شيدناه على هضبتنا، لقد ألجم الخوف لسانها فلم تعد تنطق بكلمة، لكنها كانت على يقين أن المعركة الأخيرة قد قضت على كل شيء، هي تؤمن دائما بأن الأزمة إذا اشتدت انفرجت، ولذا فهي تردد دائما: اشتدي أزمة تنفرجي، لقد حشت حقيبتها بكثير من الكتب، ستسهر عليها الليالي تنهل من رحيقها، منتظرة وليدنا الجديد، الذي تريده أن يرى النور بعيدا عن كل هذه الأحقاد، يحب الله، ويحب الإنسانية جمعاء، كل همته أن يزرع خيرا على هذه الأرض.

حتما لن نعود إلى بيتنا القديم في العاصمة، لقد رمت خلفها ونحن نغادرها أخيرا سبع بعْرات، كما كانت تفعل جدتها حين تمل مكانا ما فتقطع صلتها به، ظلت كل أحداث الإمارة كابوسا مرعبا، لم نسمع فيها إلا فتاوى القتل، ولم نر فيها إلا الدمار بكل أشكاله، كانت تقول: حتما لقد سيطرت الطائرات الشبحية على الجميع.

أيام مضت على انطلاقنا، استعملنا فيها أول الأمر فرسين وجدناهما في تيه المدينة، وحين دنونا من الربوة أطلقنا سراحهما في

مرج فسيح، ظلا يعدوان حتى تواريا عن أنظارنا.

بدت لنا الهضبة المقدسة من بعيد كما كانت هبة تسميها، كانت خضراء أنيقة، كأنما هي ربيع متجدد، كانت تقول لي وهي تتأملها: لست أدري لماذا تذكرني بجزيرة حي بن يقظان، ولست أدري لماذا تهفو نفسي إلى أن أتقمص شخصيته وأسعى لاكتشاف الحقيقة، أريد أن أمحو كل شيء علمه لي الآخرون، في مدارسهم وجامعاتهم وكتبهم، أحسه جميعا مجرد زيف، أريد أن أعرف الحقيقة وحدي كما عرفها حي بن يقظان.

وكانت الهضبة وأنا أراها تشع نورا ونوْرا تذكرني بربوة القطب، كلما حللت بها رحت أتلفت منتظرا عودته من السماء، فوق جواده السماوي الأبيض.

ضمنا بيتنا أخيرا، لم يتغير فيه شيء، غير أثار أقدام لبهائم وأنعام مرت من هنا، وغير أسراب من طيور بدأت تألف الغابة الصغيرة فاتخذتها مأوى، تخلصنا من حمولتنا، ومن ملابس كانت تثقل كاهلنا، نظفنا البيت، وعلقنا لوحتي عمار العاشق، ثم هرعنا إلى نبع الماء، لابد أن نستحم حتى نبعث الحياة في أنفسنا من جديد، انكببت على الينبوع أعب منه كأن لم أشرب في حياتي، حين ارتويت كانت هبة إلى جواري تفعل ما أفعل، مسحت شفتيها الموردتين وقالت:

-ما أروع أن نكون على طبيعتنا!

كنا نستحم فوق الصخور المحيطة بالنبع، كنت أحس أني أتحول إلى مخلوق آخر، أني أبعث خلقا آخر، كنت أحس بكل ما مر بي يتناثر مع حبات الماء العذبة، ويجري بعيدا في أغوار الأرض، صارت هبة أمامي بدرا دريا يمنح الحياة ضياء وسكينة.

أن نتطهر معنى ذلك أننا نخطو الخطوة الأولى نحو المستقبل، بحثا عن

الطائر الغريب، أن نرتقي هذه الربوة المجللة بالوقار والبهاء معنى ذلك أننا نسمو على كل ما مر بنا.

كان المساء جميلا رائقا، والشمس تدخل بأناة وعشق كبيرين أحضان الأفق البعيد، جلسنا على الأرض طفلين صغيرين نرقب الوديان والسهول والهضاب والجبال وهي تمتد بعيدا بعيدا، نرقب أسراب الطيور تقيم مهرجان العودة إلى وكْناتها، اقتربت من هبة عنزتان، ابتسمت وهي تمسد رأسيهما، وقالت:

-ما أروع أن نكون بلا أحقاد.

من بعيد أيضا كنا نلمح زرافات من بني البشر راجلة أو راكبة تنطلق مسرعة أو تمشي على مهل، تمضي طالبة الموت أو فارة منه، أينما يكونوا فهناك الموت يترصد الجميع، اذهب إليه أو فر منه، فإنه بانتظارك.

في الليل حلمت أني وهبة فراشتان في أرجوحة الزهر، نلثم رحيقه كما نلثم شفتينا.

حلمت أني وهبة نسافر على بساط من سحاب أبيض شفاف تداعبه أشعة الشمس، وترسم عليه حبات المطر لوحات القوزح البديع.

حلمت أني وهبة كطائري كناري نحلق بعيدا بعيدا حيث الحب والحرية والنور، ونعود مساء إلى حضن عشنا الدافئ، نتعانق وننام، لا نحمل في قلبينا غير سلال من فرح لا تذبل، غير أغمار من حب مترعة بدهشة لا تنطفئ.

استيقظنا معا على صوت العنزتين تحاولان فتح الباب، كانت أهداب الشمس الضاحكة قد تسللت عبر النافذتين الصغيرتين في أعلى الجدار،ناشرة قهقهتها الطفولية في كل زاوية، قالت هبة وهي تفتح عينيها وتمد ذراعيها البلوريتين:

-ياه، كأني لم أنم منذ قرون.

نشطت واقفا.

-لقد ارتويت نوما حتى الثمالة، يمكن أن أبقى مستيقظا قرنا كاملا.

وغرقنا في الضحك.

فتحت الباب للعنزتين فانطلقتا، تسللت إلى الداخل نسائم عذاب، يجب اليوم تفقد كل شيء أقمناه قبل أن نغادر الهضبة، نشطت هبة تعد طعاما، وانحدرت أتفقد البستان، من بين أشجار الغابة برز لي شبح رجل، توجست خيفة وأنا أقف مكاني أهم بأن أعود إلى البيت، ظهر لي كلية، وقد علته ثياب ممزقة متسخة، أسرع يعطيني الأمان:

-السلام عليك.

ورمى سيفه بين يدي، وقال:

-مستغيث يرجو عونا.

أدخلته البيت، جاءته هبة بشيء من التمر والحليب، انكب يلتهم ما وضع أمامه، كأنما يريد أن يلقي بحاجته سريعا، سألته:

-هل تحتاج ثيابا، أم مطية؟

-بين الأشجار رفيق لي غادر الفانية.

قاطعته هبة فزعه.

-قتيل؟

أشار بيده يمهلنا، وراح يخبرنا قائلا:

-إن الوهابيين النواصب قد خرجوا في كل قوتهم لملاقاة الشيعة الروافض، شعارهم الأكبر "واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف"، وحتما سيمرون من هذا المكان، كل من رفض الخروج معهم قتلوه، نجوت أنا من مطاردتهم، وأصيب رفيقي برمية سهم، تحداها حتى وصل إلى هذا المكان، تجرع ماء، تمدد، وفاضت روحه إلى خالقها، لا أريد شيئا، غير طعام وماء أستعين بهما على حمل نفسي ورفيقي، سأدفنه بعيدا في

عمق الوادي.

وقف وهو يزدرد الطعام قائلا:

-علمت أيضا أن الشيعة وأنصارهم قد خرجوا لملاقاتهم، موعدهم هذا الوادي الذي يمتد فسيحا تحت هذه الهضبة، والجميع متفق على تسميته "وادي الموت".

وانطلق ينحدر حاملا رفيقه فوق بهيمته.

حين انتصف النهار، بدأت أولى طلائع الجيشين في الوصول، كانت الرايات السوداء تخفق في كل مكان، وكان للرجال والخيول جلبة وصخب حتى اهتز الوادي اهتزازا شديدا وارتجت كل أركانه، ولم تمض إلا سويعة حتى بدأت المعركة على إيقاع التكبير، والحمحمات، وصليل السيوف.

مالت الشمس إلى الغروب تسعى للهروب من هذا المشهد الفظيع، كانت الأرض تئن، وبدت السماء شاحبة عليلة، وقد تسربلت بالغبار، وراحت الأصوات تخفت شيئا فشيئا وقد اختطف الموت الجميع، أحست هبة بالخوف فاندفعت إلى حضني باكية، أحسست ببطنها قد انتفخ قليلا، تلمستُ في جيبها قنينة العطر التي أهداها لنا العميد، أفرغت منها على جسدينا، عبق المكان بروائح الجنة، أخرجت اليراع المنمق، تأملته لحظات وأنا أسترد صورة العميد يسقط أرضا مضمخا بدمه، سوَّيته بين شفتي ونفخت فيه، اندفع يصدح بأنغامه العذبة، حتى غشي المكان فرح، توهج نوره بكل ألوان القوزح، فجأة تعالى فوق رأسينا تغريد عجيب، رفعنا أعيننا معا، كان طائرا من جنة، أخضر مع بياض خفيف يشوبه، كالمرج تساقطت عليه قزعات بيضاء من سحاب ربيعي، على رأسه تاج تتدلى ذؤابته عن يمين، ويمتد ذنبه منفتحا في كبرياء، كأنه مروحة للروح، يعزف سمفونية للأمل، أسرعت

أحتضن هبة، أضمها إلى صدري، وفي كل المكان عطر وأنغام ولوحات لنور بهيج، وروح وريحان وفرح سماوي، قالت هبة كالهامسة وهي تضغطني إليها:

-إنه هو.

دون أن أحول بصري عنه، قلت هامسا أيضا.

-نعم هو، إنه هو.

رحنا نتابعه بفرح طفولي، غير مصدقين ما نرى، وظل الطائر يسمو إلى السماء باتجاه الشمال، دون أن يضعف وصول تغريده إلينا، وظللنا متعانقين، لتشهد النجوم في سطوعها الأول حبنا الأبدي.

**2013 -12-11**

**عزالدين جلاوجي** : أديب وأكاديمي، صدرت له عشرات الأعمال الإبداعية والنقدية، وقدمت عن أعماله عشرات البحوث والرسائل الجامعية، داخل الوطن وخارجه، ويعد من الأسماء التي تخوض غمار التجريب، حاول أن يؤسس لاتجاه جديد في الكتابة المسرحية، أطلق عليه مصطلح مسردية، من أهم أعماله:

الرواية :

1. سرادق الحلم والفجيعة
2. الفراشات والغيلان
3. راس المحنه 1+1=0
4. الرماد الذي غسل الماء
5. حوبه ورحلة البحث عن المهدي المنتظر
6. العشق المقدنس
7. حائط المبكى

القصة :

8. لمن تهتف الحناجر؟
9. خيوط الذاكرة
10. صهيل الحيرة
11. رحلة البنات إلى النار

المسردية/ المسرحية:

12. النخلة وسلطان المدينة
13. رحلة فداء
14. غنائية الحب والدم
15. البحث عن الشمس
16. ملح وفرات
17. حب بين الصخور
18. الفجاج الشائكة

19. هستيريا الدم
20. التاعس والناعس
21. الأقنعة المثقوبة
22. أحلام الغول الكبير

أدب الأطفال:

23. أربعون مسرحية للأطفال
24. خمس قصص للأطفال

الدراسة النقدية:

25. النص المسرحي في الأدب الجزائري
26. شطحات في عرس عازف الناي
27. الأمثال الشعبية الجزائرية
28. المسرحية الشعرية في الأدب المغاربي المعاصر
29. تجليات العنف في المسرحية الشعرية المغاربية
30. وقفات في الأدب الجزائري

للاتصال بالمؤلف
0550443030
djelaoudji@yahoo.fr